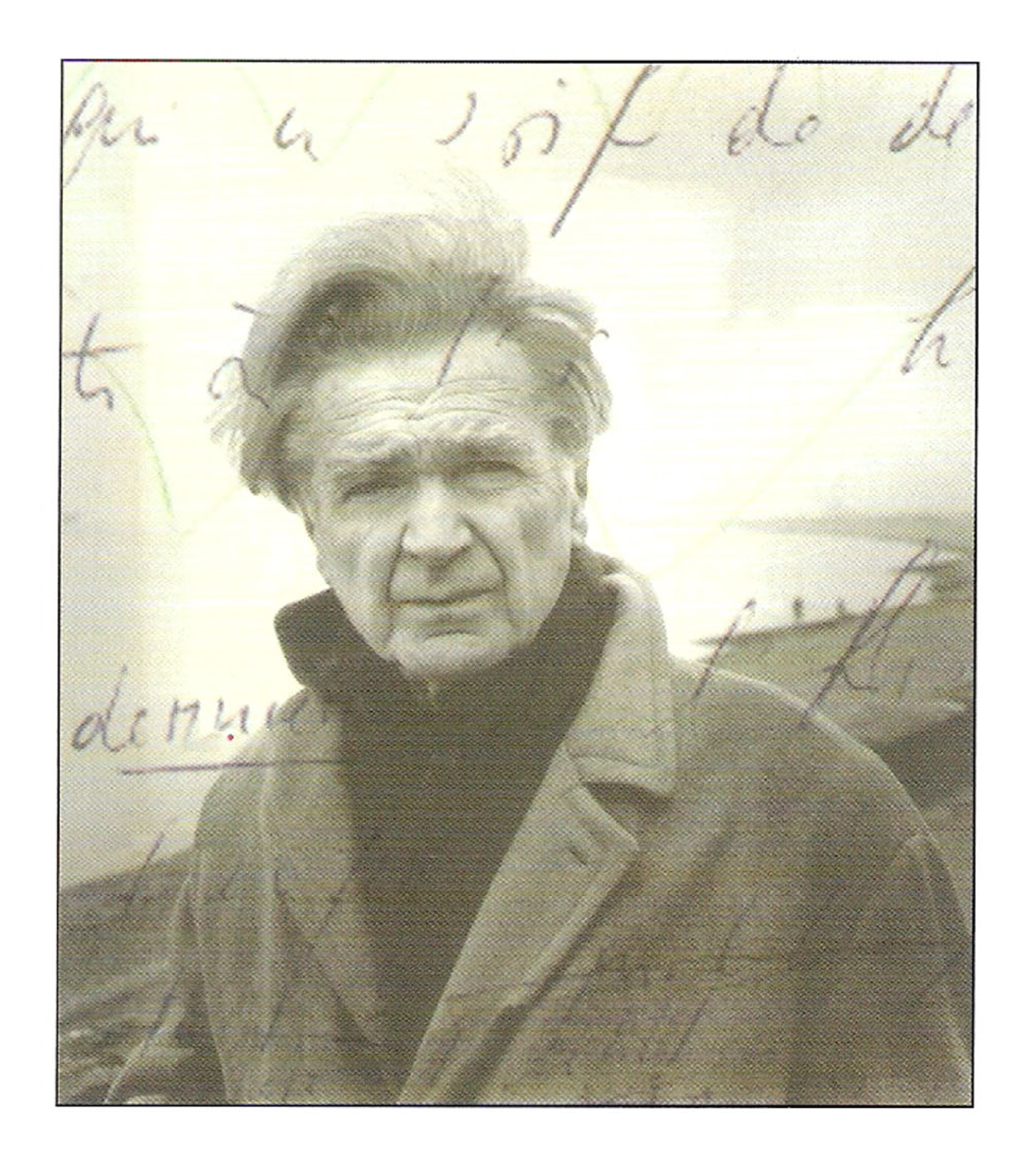
سيوران

تاريخ ويوتوبيا



ترجمة: آدم فتحي

منشورات الجمل

سيوران: **تاريخ ويوتوبيا**

سيوران

تاريخ ويوتوبيا

ترجمة: آدم فتحي

منشورات الجمل

آدم **فتحي**: شاعر تونسي (١٩٥٧). له إسهامات في المقالة الصحفية والدراسة النقدية والقصة. أشرف على عدّة صفحات ثقافية. له العديد من المؤلفات الشعرية والترجمات، منها: **أناشيد لزهرة الغبار**، شعر (١٩٩٢)؛ **يوميات شارل بودلير**، ترجمة (١٩٩٩)؛ **جيلبرت سينويه: ابن سينا أو الطريق إلى اصفهان**، رواية (١٩٩٩)؛ **نعيم قطّان: وداعاً بابل**، رواية (٢٠٠٠)؛ **إميل سيوران: المياه كلها بلون الغرق** (٢٠٠٣)؛ **نعيم قطّان: فريدة**، رواية (٢٠٠٦)؛ **جيلبرت سينويه: اللوح الأزرق**، رواية (٢٠٠٨).

سيوران: **تاريخ ويوتوبيا**، ترجمة: أحمد فتحي، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٦٦٨١١٨
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Cioran: *Histoire et Utopie*

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

علي سبيل التقديم

سيوران و التّاريخ الكوني

كتاب و كاتب و مترجم

قد تبدو هذه التّرجمة الجديدة لأحد كتب سيوران حدثًا عاديّاً بما أنّ آدم فتحي مكّننا في مرة سابقة من قراءة هذا الكاتب بالعربيّة. وقد يبدو ذلك بديهيّاً فنقول «أنجز حرٌّ ما وعد». لكنّ الأمر ليس بالبساطة أو السّهولة التي نعتقد، لا لصعوبة فعل التّرجمة فحسب، بل لطبيعة كتابة سيوران من جهة، ولخصوصيّة هذا النّصّ من جهة أخرى.

إنّ كتابة سيوران تُمثّل في حدّ ذاتها حدثا فريداً من نوعه في تاريخ الأدب الفرنسي خلال النّصف الثاني من القرن العشرين. وفي وسعنا اعتبار كتاب «تاريخ ويوتوبيا» حدثًا داخل الحدث، فهو أثر نحن بأمسّ الحاجة إليه اليوم و غدًا، لأنّه يحمل «فكر ما بعد الوفاة» - حسب عبارة نيتشه - أي أنّه جاء ليملأ الفراغ النّاتج عن موت المؤلّف البيولوجي وصمته الإبداعي على حدٍّ سواء. مثلُ هذه الكتب لا ينفتح بسهولةٍ للقراءة، ولا يتمكّن من فضّ الختم عنه إلاّ الّذين درّبوا أنفسهم على ممارسة كتابةٍ وفكرٍ

خطيرَيْن بسبب ما ينتُجُ عنهما من الأرق والدّوار والغثيان. لكن، وبعد خوض هذه المعركة، يخرج القارئ حيّاً، ربّما لا رابحا ولا منهزمًا، بل مفتوح العينيْن فحسب، وواضح البصيرة، ليقرّر بعد ذلك إن كان خاسرًا أو منتصرًا.

وإذا كانت هذه القيمة جليّة بالنّسبة إلى القرّاء الفرنسيّين والأوروبّيين عمومًا، فهي كذلك بالنّسبة إلينا نحن قرّاء العربيّة، لما جاء في هذا الكتاب من المعاني - ولنقل الدروس - التي من شأنها أن تمكّننا من جمع شتات صفوفنا المهزومة في خضمّ هذه المعركة المتواصلة الّتي نحن بصدد خوضها أمام عالم وثقافة وهويّة لم ننل منها (كي لا نقول لم نرث) إلاّ ما أبعدنا عنها وعن أنفسنا.

من هذا المنطلق يبدو الكاتب الرّوماني الأصل سيوران مرجعا أساسيّاً لنا في مغامرة البحث عن هويّتنا المبعثرة وعن إمكانيّة تصالُحِنا مع الحضارة الغربيّة التي أسقطنا عليها ما زرعته فينا من شعور بالحرمان والإحساس بالنّقص خلال الفترة الاستعماريّة من جهة، وتبعًا للأحداث التاريخيّة اللاحقة على ذلك والرّاسخة فينا، من جهة أخرى. نعم، سيوران بصيص نور في العتمة المحيطة بنا لأنّه تمكّن من حلّ هذا النزاع الرّاسخ أيضًا في هويّته الرّومانيّة أي الشّرق أوروبّيّة، عبر الكلمة والفكر، مغامرًا في لغة ليست لغته الأمّ (الفرنسيّة)، تائهًا في مدينة ليست مدينته (باريس)، غارقًا في بحر داكن اللّون وهو لا يجيد العوم - بحر المعنى وبالتّحديد بحر إضفاء المعنى على الحياة. ولئن عالج آدم فتحي بعض هذه المسائل في مقدّمته لكتاب «المياه كلّها

بلون الغرق» (منشورات الجمل، ٢٠٠٣)، وهو أوّل تعريب له لسيوران، فإنّه يجدر بنا توضيح اختيارات المترجِم الذي يقترحُ علينا اليوم أثرًا آخر للكاتب يمكن أن يبدو مختلفًا عن سابقه.

إذا كانت عبارة «المياه كلّها بلون الغرق» عنوانًا من اقتراح المترجم للالتفاف على جفاف العنوان الأصليّ «مقايسات المرارة»، فإن عبارة «تاريخ ويوتوبيا» هي التّرجمة الحرْفيّة للعنوان الأصلي للكتاب الصّادر بالفرنسيّة سنة ١٩٦٠، وهو الرّابع في سجلّ أعمال سيوران، وذلك بعد صدور «غواية الوجود» سنة ١٩٥٦، «المياه كلّها بلون الغرق» سنة ١٩٥٢، و«رسالة في التّحلّل» سنة ١٩٤٩. ولئن لاحظنا هنا نظامًا نسقيّاً في تسلسل تواريخ صدور الكتب الأولى لسيوران - أي بمعدّل يتراوح بين ثلاثٍ وأربع سنوات بين الإصدار والآخر- فإنّ هذا الأمر يستمرّ إلى آخر حياة الكاتب الإبداعيّة، وكأنّه تعمّد أن يعتكف كلّ مرّة طيلة المدة المذكورة للإتيان بعمل جديد. ويبدو لنا أنّ هذه المعاينة لا تخلو من دلالة سننظر فيها مليًّا لاحقا. لكنّ ما يثير انتباهنا هنا أنّ آدم فتحي اختار الكتابيْن الثّاني والرّابع في لائحة أعمال سيوران. ولا أعتقد أنّه فعل ذلك حُبًّا في الأرقام الزّوجيّة أو الشّفعيّة، بل أرجّح أنّه انطلق من أسباب أعمق بكثير، وأكتفي هنا بذكر سببين:

أوّلاً أن كتاب «المياه كلّها بلون الغرق» أوّل الكتب الشذريّة أو المقطعيّة - كما يحلو للبعض تلقيبها - لسيوران، زيادة على أن كتابة الشّذرات هي من أهم خصوصيّاته الأسلوبيّة وحتى الفكريّة، فلقد لُقّبَ بلاروشفوكو القرن العشرين، على الرّغم من

اختلافه عن لاروشفوكو وباسكال ولابروبير وغيرهم من كُتّابِ القرن السّابع عشر - أي العصر الكلاسيكي للأدب الفرنسي - الّذين جعلوا من الكتابة القصيرة سلاحًا يواجهون به الانحلال الأخلاقي والثّقافي لعصرهم. إنّ هذا الاختلاف متعدّد الأوجه، لكن يمكننا حوصلته في أنّ غاية سيوران والأثر اللذيْن يرمي إليهما بعيدان كلّ البعد عن هموم واهتمامات سابقيه. فهو لا يبحث عن الإصلاح الأخلاقي أو غيره وفقا لمرجعيّة ثقافيّة ودينيّة تستمد شرعيّتها من مدرسةٍ دينيّة كالأوغوسطينيّة عند لاروشفوكو والجانسينيّة عند باسكال، أو مدرسة فكريّة كالاتّعاظ بالفلسفة الإغريقيّة المنصّرة عند لابروبير. بل هو يحاول من خلال شكلٍ أدبي حرّ أن يقول الشّيء ونقيضه، لا تناقضًا مع نفسه فهذا سوء فهم لكتابة سيوران وفكره، بل تعبيرًا عن كلّ أبعادِ نفسه، متوخّيًا في ذلك أسلوبًا ديناميكيًّا حيويّا واختيارًا دقيقًا للكلمات.

من هذا المنطلق يكون المترجم قد اختار أن ينقل إلينا «جنسًا أدبيًّا» جديدا كان سيوران أوّل من دعا إليه ودافع عنه[١]. وقد لقي هذا الجنس الأدبي الجديد بعد ذلك شهرةً كبيرة مع كتّاب فرنسيّين كِبار، مثل موريس بلانشو، جورج بيروس، لوي

(١) «كيف نتابع يوم غد فكرةً كنا قد اهتممنا بها ليلة أمس؟ - بعد أي ليلة كانت، لسنا نفس الأشخاص، ومن الغشّ أن نواصل مهزلة الدّيمومة. - الشّذرة، جنس مخيب للأمل دون أي شكّ، لكن وحدها هي الشّريفة.» سيوران، «تقطيع أوصال»، باريس، غاليمار، ١٩٦٩، «الأعمال الكاملة»، كوارتو غاليمار، ١٩٩٥، ص. ١٤٩٥ (ترجمة أيمن حسن)

ريني دي فوري وباسكال كينيار، وكتّاب عرب نذكر منهم محمود المسعدي وإبراهيم الكوني.

ثانيًا أنّ كتاب «تاريخ و يوتوبيا» هو أكثر كتب سيوران نظاماً ونسقيّة في بنيته الفكريّة والأسلوبيّة. فهو شأنه شأن «غواية الوجود» يخضع لشكلٍ نثري ذي حبكة فلسفيّة واضحة، على الرّغم من أنّ «غواية الوجود» لا يتمحور حول فكرة أو موضوع محدّدَين، فهو بمثابة استكشاف لمتاهات «الوجود» والرّغبة الغاوية الّتي يبعثها في نفوس البشر، غاشيًا بذلك أبصارهم عن إمكانيّة النجاة بفضل «الفراغ» أو «العدم». إنّه كتاب فريد من نوعه أو حدث داخل الحدث كما قلنا، كيفما حاولنا النّفاذ إليه. فهو أثر متكامل إن تطرّقنا إليه من باب الشّكل الإبداعي في الكتابة أو من باب الفكر المحض، علاوةً على أنه يطرح قضايا حاليّة ومعاصرة لنا، وأكثر من ذلك : إنّها قضايانا الأساسيّة التي لم نقدر بعد على حلّها لأنّنا لم ننتبه إليها ولم نخُضها بعد. إنها قضايا علاقتنا مع التّاريخ - تاريخنا - في تبلوره وسيره جنبًا إلى جنب مع اليوتوبيا - أي أحلامنا و كوابيسنا معًا - الّتي ما استطعنا بعدُ رؤيتَها بشيءٍ من التروّي والنضج في الفكر والقول والعمل على حدٍّ سواء. أليس هذا طريفًا وغريبًا حقّا؟ - بلى، لكن علينا أخذ هذا الكتاب بكلّ ما أوتينا من قوّة، وقراءته بالطّريقة المنهجيّة الّتي يستحقّ، إذ أنّ أسلوب سيوران ليس أكاديميًّا أو جامعيّا. فهو يرفض الخضوع للمصطلحات والأنساق الفلسفيّة والفكريّة والعلميّة السّائدة. هُوَ أسلوب يكاد يكون شعريّا وإن اتّخذ من النّثر متنا له، وكأنّه جاء ليجسّد قول أبي حيّان التّوحيدي في

«الإمتاع»: «أحسنُ الكلام ما قامت صورته بين نظمٍ كأنّه نثر ونثر كأنه نظم.» (اللّيلة الخامسة والعشرون)

سيوران الذي يعتبِرُ «الأسلوب مغامرة»، يجوب مجال المعرفة بطريقةٍ تبعث الإعجاب في نفس القارئ العارف الشّغوف، فهو لا يستمدّ مرجعيّاته من كتب التّاريخ بل من النّصوص المؤسِّسة التي تشهد على معنى التّاريخ المشترك للشّعوب، لا للشعبٍ فحسب بل للجنس البشري جمعًا وللإنسان فردًا. وإذا كان سيوران متأثّرًا بنيتشه، فهو يضرب عرض الحائط بمقولة «ما بعد الخير و الشّرّ»، ويدعو إلى مراجعة هذا الإقرار الّذي يعتبره»ساذجًا«و«صبيانيًّا»، لأنّه يرى أنّ الإنسان لم يتهيّأ بعدُ لمرحلة ما بعد المانويّة لما تتطلّبه من وعي وإدراك يكادان يُخرجان الإنسان من التّاريخ ذاته. بذلك يبدو فهم سيوران للعالم وللتّاريخ و للإنسان فهمًا تكوينيّا أو «كوسموغونيّا» - لما تتضمّنه هذه الكلمة من دلالاتٍ ميتافيزيقيّة وأنطولوجيّة تدفع بنا نحو ذلك الماضي الغامض الّذي درَسه سيوران في كتابه «صانع الكون الشّرّير» (١٩٦٩). وبالتّالي يبدو فهمه لكل ما يحيط بنا أشبه بما نقرأ ونعيش في النّصوص التكوينية الأولى مثل الملاحم والأساطير والأناشيد البابليّة، الهنديّة، الفارسيّة، الإغريقيّة واللاّتينيّة القديمة، ومثل أخبار الأوائل وأقوالهم كسقراط، لاو تسو، أصحاب الأناجيل، آباء الصحراء وغيرهم. كل هذه المراجع تُحيل على معنىً إنسانيّ مشترك لا يخصّ حقبةً معيّنة من الزّمن أو شعبًا دون غيره من الشّعوب أو جنسًا دون غيره من الأجناس أو فردًا دون غيره من الأفراد. إنّها الإنسانية جمعاء

احتضنها سيوران في فكره وفي كتاباته ليصوّرها كما هي، دون قناع، بائسةً، عابدةً، مُستعبَدَةً، فانية، وهي على الرغم من ذلك تبحث عن المعنى وتَنشُدُ الخلود.

تطرّق سيوران إلى ذلك في أحد حواراته الممتعة الّتي يبدو لنا من خلالها رجلاً ضاحكًا جذلاً مقارنةً باليأس والسّواد اللذيْن يُخيّمان على نظرته للعالم. ولعلّ سرّ سعادته كامنٌ في فهمه الدّقيق لحركة التّاريخ من جهة ولجهل الإنسان له من جهةٍ أخرى، فلْنُصغ إليه: «عندما كنت شابًّا، لم أكن أقرأ سوى الفلاسفة، وبعد ذلك تخلّيتُ عن الفلاسفة وشرعتُ في قراءة الشّعراء. وفي سنّ الأربعين اكتشفتُ التّاريخ الّذي كنت أجهل. طرحني ذلك أرضًا! إنه أكبر درس يمكن تخيّله في الصّفاقة. اخترْ أيّ حقبة تاريخيّة وتعمّقْ في دراستها، ستكون الاستنتاجات الّتي تستخرجها حتمًا رهيبة. لا يمكنُ للنّاس أن يتخيّلوا للحظةٍ واحدة أنْ ليس للتّاريخ معنًى. للتّاريخ مجرى يسير فيه ويتبعه، لكن لا معنى له. فلنأخذ الإمبراطورية الرّومانيّة على سبيل المثال: لماذا فتحت العالم تاركةً بذلك المجال للجرمانيّين البرابرة لاجتياحها وهدمها؟ ليس لهذا أيّ معنى. لماذا شقيت أوروبّا لمدّة قرون طويلة من أجل تأسيس حضارةٍ كان واضحًا أنّها مهدَّدة بالزّوال من الدّاخل، لأنّ الأوروبيّين متصدّعون داخليّاً؟ لا يُعتبر أي خطر خارجي جسيمًا، لكنّ كلّ الحضارات برمّتها ناضجة للاختفاء. هكذا هو التّاريخ الكوْني، في لحظة معيّنة كل حضارة تنضج للاختفاء. إذن نتساءل عن معنى هذا المجرى أو السّير، لكن لا معنى له. هناك مجرى فحسب.» (سيوران، حوار مع ليو جيلي،

حوارات، باريس، غاليمار، ١٩٩٥، ص. ٦٧.)

هكذا نكتشف السبب الثاني الذي دفع آدم فتحي إلى اختيار هذا الكتاب كثاني الأعمال التي يترجمها لسيوران. لقد أراد أن ينقل إلينا «تاريخ و يوتوبيا»، لتكتمل الصورة السيورانيّة فكريًّا وأسلوبيًّا، بجانبها النسقيّ بعد أن اكتشفنا جانبها الشذريّ.

حول النّصّ و فيه

لعلّ من المفيد هنا تحديد بعض المفاهيم الخاصّة بهذا الكتاب، إذ أنّ جلّ النّصوص التي يحتويها صدرت في ظروفٍ معيّنة يُستحسن الإشارة إليها. فالنّصّ الأول الّذي يفتتح «تاريخ و يوتوبيا» له قصّة خاصّة تجعل منه شاهداً على الحقبة الزّمنيّة التي خُطّ فيها وعلى البنية الفكريّة لسيوران. ولئن جاءت هذه «الرّسالة إلى صديق بعيد» خالية من كلّ إشارة إلى هويّة هذا الصّديق، فإنّ ذلك لا ينمّ عن نيّة تضليليّة تخصُّ أسلوب التّشويق، بل لأنّ الكاتب يحاول حماية صاحبه القديم، الكاتب و الفيلسوف الرّوماني، كونستنتين نُويْكا المعروف بدينو (Constantin Noïca dit Dinu)، الّذي عاش بين سنتيْ ١٩٠٩ و ١٩٨٧، والّذي تعرّض للسّجن تحت النّظام الشّيوعي تحديدًا بسبب هذه الرّسالة وبسبب علاقته بسيوران الّذي كان يُعتبَر عدوّا لدودًا لهذا النّظام. للإلمام بحيثيّات هذه القضيّة المأساويّة نشير إلى كتاب «الصّديق البعيد: باريس - بوخارست[1]» الّذي يتضمن ردَّ نويكا على

(١) بالفرنسية، صادر بباريس عن دار كريتريون سنة ١٩٩١.

سيوران، ثمّ نصّا بإمضاء نُويْكا عنوانه «ذكريات حول سيوران»، وآخر بإمضاء سيوران تحت عنوان «وصف وجيز لدينو نُويْكا».
هذه الرّسالة تتمحور حول نوعيْن مختلفيْن من المجتمعات الأوروبيّة بيّن سيوران أوجه التّضاد والتّصادم بينهما. لكنّه في قراءته التحليليّة، يبدو لنا منفردا عن غيره من المفكّرين، فهو لا يُخضِع فهمَه للأمور لأيّ أُسسٍ سوسيولوجيّة أو أنثروبولوجيّة، بل يخضعها لكتابةٍ حُرّة لا تحتكم إلاّ للتّمشّي الذّاتي، أي أنّ كتابة سيوران، بعبارة أخرى، هي وليدة فكرٍ محض لا يستند إلى براهين وأدلّةٍ محسوسة وإنّما إلى الحقائق الّتي تتبلور الواحدة تلو الأخرى بفعل شاعريّة تفكيره الّذي يرتقي بالفعل إلى مصافّ الكُتّاب الأخلاقييّن (les moralistes). يتجلّى ذلك من خلال مجموعة من التّراكيب الحادّة و الجُمَل الفاصلة الّتي تسمى في اللغة الكلاسيكية الفرنسيّة ب«اللّذعة» (la pointe)، و من بينها على سبيل المثال هذه الفقرات التي نجدها في كتابنا هذا:

«أن نعيش حقًّا يعني أن نرفض الآخرين، فالقبول بهم يتطلّب التخلّي عن الأشياء، كبحَ جماح الذّات، التّصرّف ضدّ الفطرة، *إضعاف* النّفس. نحن لا نتصوّر الحريّة إلاّ لأنفسنا ولا نبسطها على القريبين منّا إلاّ بشقّ الأنفس، من ثمّ هشاشة الليبراليّة بوصفها تحدّيًا لغرائزنا، نجاحًا عابرًا شبيهًا بالمعجزة، وضعًا استثنائيًّا على النقيض من ضروراتنا العميقة.»

«نحن لا نصبح متسامحين إلاّ بقدر ما نفقد حيويّتنا، بقدر ما

يطيب لنا الوقوع في الطفولة، بقدر ما يبلغ بنا الإعياء حدّ العجز عن تعذيب غيرنا بالحبّ أو بالكراهية.»

«علينا أن نموت بالهنغاريّة أو أن نتخلّى عن الموت.»

«لا تزدهر الحريّات إلاّ في جسد اجتماعيّ مريض. التسامح والعجز مترادفان. يتَجلّى ذلك في السياسة كما يتجلّى في كلّ شيء.»

تزداد هذه المقولات لذاعةً عندما نقرأها على حِدة وكأنّ سيوران كَتبها في دفتر جيبٍ صغير ليضيفها بعد ذلك إلى نصوصه، علاوة على ذلك استشهادُه بالأمثال الشّعبيّة العالميّة وبالكُتّاب الأخلاقيّين كي يرفع من وطأة استنتاجاته السّوداويّة، وهو ما يتجلّى من خلال تضمينه نصَّه بعبارةٍ للاروشفوكو: «ألم العار»[1]، أو بأخرى لشمفور (Chamfort) عن الحزن المخيِّم على باريس[2].

صدر نصّ «رسالة إلى صديقٍ بعيد» سنة ١٩٥٧ في «المجلّة الفرنسيّة الجديدة» عن دار غاليمار، ناشر سيوران. كما صدر نصّ «في مدرسة الطّغاة» في مطلع سنة ١٩٥٩ تحت عنوان

---

(١) « Ce qui rend les douleurs de la honte et de la jalousie si aiguës, c'est que la vanité ne peut servir.» La Rochefoucauld, *Maximes*, § 446.

(٢) « Paris, ville d'amusements, de plaisirs, etc., où les quatre cinquièmes des habitants meurent de chagrin.» Chamfort, § 495.

مختلف: «أصدقائي الطّغاة». تكمن أهمّيّة هذه المعلومات في أنّ سيوران كاد ينقطع عن الكتابة بعد صدور «غواية الوجود» سنة ١٩٥٦ بسبب أزمةٍ وجوديّة تتمثّل في تساؤله عن مصيره كفرد وككاتب في فرنسا. لكن بفضل مجهودات الكاتب الكبير جون بولان (Jean Paulhan) الذي كان يدير آنذاك «المجلّة الفرنسيّة الجديدة»، لم ينقطع سيوران عن الكتابة وتمكّن من مواصلة مسيرته. هذه المسيرة المتقطّعة تعكس حياة الكاتب ذاته لا من حيث الشّكل والمضمون فحسب بل كذلك من حيث أنّ الشكل مرآة تعكس حقيقة المضمون، و يبدو ذلك من خلال الجنس الأدبي الحرّ أو بالأحرى المتحرّر الّذي اعتمده. وإذا كان كتاب «تاريخ ويوتوبيا» ينتمي إلى جنس الفكر أو المقالة الفكريّة، فإنّ كتابةَ سيوران تتجاوز هذه المنظومة أو - كما قلنا - تتحرّر منها، لتثبت وَهنَ كلّ النظريّات الخاصّة بالأجناس الأدبيّة. فالكتابة هنا كتابة فحسب. كتابة تنسلخ عن الأجناس كي تصيرَ ماهيّتها، ماهيّة ذاتها تحديدًا، أي فعلاً شموليّاً إن نمّ عن شيء فهو ينمّ عن إيمانٍ عميق بعبثيّة كل شيء، حتّى الكتابة ذاتها. للقارئ أن يلحظ ذلك منذ مطلع هذا الكتاب حيث يُعبّر سيوران عن صعوبة الكتابة، تلك الصعوبة التي تحدث عنها مرارا وتكراراً طوال حياته في أغلب كتبه وحواراته، وكأنّ كتابته تتغذى منها أو على الأقلّ تستلهم منها نفوذها: «تريد أن تعرف إن كنت أفكّر في العودة يومًا إلى لغتنا نحن، أم أنّي أعتزم البقاء وفيًّا لتلك الأخرى التي تنسب لي فيها رفاهةً لا أملكها، ولن أملكها أبدًا».

أجل، صارع سيوران اللّغة الفرنسيّة التي كانت ألدَّ خصومِه.

ولئن اعتبره قُرّاءُه من أهمّ الكُتّاب النّاطقين بالفرنسيّة خلالِ النصف الثّاني من القرن العشرين، شأن الشّاعر الكبير سان جون بيرس القائل إنّه «أكبر الكُتّاب الفرنسيّين الّذين تفتخر بهم لغتنا منذ وفاة فاليري» (سان جون بيرس، *الأعمال الكاملة*، باريس، غاليمار، مكتبة البلياد، ١٩٧٢، ص. ٥٤١)، فإنّ لسيوران رأيا آخر. إذ يعتبر أنّ لغته هزمته، وهي الّتي فرضت عليه هذا النّمط غير النمطي في الكتابة، أي الجنس المقطعي أو الشّذري، حتى وصلت به إلى الصّمت، علمًا أنّ آخر كُتُبِهِ «اعترافات ومحرَّمات» صدر ثماني سنوات قبل وفاته، وأنّه انقطع تدريجيّا عن الكتابة منذ بداية الثّمانينات. ربما هو الملل الّذي يسود أي صراع غير متكافئ، فسيوران يعتبر نفسه ضعيفًا أمام عظمة هذه اللّغة، وبالتّالي فهو وإن نجح في ترويضها لمدّة ثلاثة عقود، يُقرّ بفشله في ترويض ذاته من خلالها. الفشل هنا إذن من نوع آخر: إنّه يعني أنّ الكاتب لم ينجح في تغيير ذاته عبر الكتابة وأنّ مرضه الكامن في أصوله الجينيالوجيّة انتصر عليه وطرحه أرضًا. نعني هذا المرض الّذي أفصح عنه في خاتمة رسالته إلى صديقه البعيد: «تغريني في أحيان كثيرة فكرةُ انتحال سلالة أخرى لي، فكرة استبدال أسلافي وانتقائهم من بين من عرفوا في زمانهم كيف ينشرون الحداد بين الأمم، على النقيض من أسلافي، على النقيض من أسلافنا الباهتين...»

هذا مريبٌ فعلاً. ولكن من قال إنّ كتابة سيوران وفكره وحياته ليست بالمريبة؟ إنّ هذا الكتاب الذي يقدّمه لنا آدم فتحي بالعربيّة وليد الشرّ، ذلك الشّرّ الكامن فينا نحن البشر، وفي كلِّ

ما نصوغه في أعمالنا الّتي ننسبها بتعالٍ مفرط إلى «التاريخ».
أليس ذلك ما عبّر عنه سيوران بـ «فايروس الحريّة» على سبيل المثال، مبرزًا العكس تحديدًا بهذا القول: «كما إنّي أرى أنّ الطغاة، وإن كنتُ أمقتهم، هم الذين يصنعون نسيج التاريخ. . . »

لا يخضع هذا الكتاب لحركة عقليّة أو فكريّة واضحة المنهج، بل بالعكس يتّبع حركةً دائريّة مستمرّةً وكأنّ غايته بعث الدوران فينا حتّى نبلغ مرحلة الغثيان. يظهر ذلك جليًّا منذ مطلع «رسالته» إلى صديقه البعيد: «من تلك البلاد الّتي كانت لنا ولم تعد لأحد، أنت تلحّ عليّ بعد كلّ هذه السنوات من الصمت، كي أمدّك ببعض التفاصيل عمّا يشغلني، وكذلك عن هذا العالم «الرائع» الذي تقول إنّي محظوظ بسكناه والتجوال فيه. . . »

إذا أراد القارئ فهمَ ما يحدث له من أمور غريبة فعليه أن يعلَمَ أنّ كونستنتين نُويْكا المرسَل إليه شعر بنفس هذا الدّوران إلى حدّ التّناقض مع نفسه قائلاً: «أحياناً عندما نختار نوعًا من النّقاوة، كلّ شيء يبدو لنا ذا أهميّة وعندئذ نكتب مذكّراتنا الشخصيّة أو أعمالنا الرّائعة من أجل أدراج مكاتبنا. في النّهاية المنفى أفضل لنا.» (الصّديق البعيد: باريس - بوخارست، نفس المصدر، ص. ٥٦.)

وإذا كان سيوران قد استطاع بثّ نظرته العبثيّة في نفس صديقه، فما الّذي سنجنيه نحن؟ هل سنُشفى من داء الأمل ونرضى لأنفسنا بألم اليقظة أم سنثور ضدّ كلّ شيء لنصير أبناء الشّيطان «من قال لا في وجه من قالوا نعم» على حدّ قول أمل دنقل؟

ليسمح لنا القرّاء بوقفة أخيرة مع مطلع «رسالة إلى صديق بعيد» نظرا لما فيها من نموذجيّة، نستدلّ عليها ونستقرئها لفهم الدّائرية الكامنة في كتاب «تاريخ و يوتوبيا». أوّلا: النظام الزّمني الخاص بالنصّ يمتدّ على ماض بعيد على غرار الصّديق نفسه، أي أنّ الرّبط بين الماضي الوجيز عن طريق عبارةِ «كانت»، والحاضر المطلق أي الصّالح لكل زمان و مكان عن طريق عبارةِ «لم تعد لأحد»، يفرض القطيعة بين الكاتب وموطنه من جهة وبين الصّديقين من جهة أخرى، ممّا يقلب رأسا على عقب موازين الصّداقة الّتي كانت بين الرجليْن: الإيديولوجيا المشتركة خلال فترة الشّباب انقضت. ثانياً: الفضاء النّصّي ينشطر إلى نصفيْن: الأسئلة عن العالم الآخر - الغرب - المسكوت عنها من قِبل الصّديق البعيد، والأجوبة المتشائمة الّتي تبعث اليأس في الصّديق الآخر. ثالثًا: التأثيرات الّتي يسعى النّصّ إلى إبلاغها هي من قبيل الشّجن والألم اللذين يعبّران عن عذاب الشّعور بالتّمزّق الجسدي والرّوحي في الآن نفسه، إذ أنّ في هذا الشعور بالتّمزّق الفيزيقي والميتافيزيقي توحيدًا لذات سيوران الإنسان والكاتب ولذات نصّه الشّذري. يقول سيوران في كتاب «في مساوئ أن تكون وُلدت» (١٩٧٣): «عشتُ طوال حياتي برفقة الشّعور بأنّي أُبعدتُ عن مكاني الحقيقي. لو لم يكن هناك معنى لعبارة «الغربة الميتافيزيقيّة» فإنّ وجودي لوحده كفيل بإيجاد معنى لها.» (الأعمال الكاملة، نفس المصدر، ص. ١٣٢٠.)

فلْتكن علاقتنا بسيوران وبنصوصه إذن وثيقة، أي فلتنبنِ على أساسيْ الألم والشّرّ، لأنّهما الوحيدان الكفيلان بتوطيد علاقتنا

بالمعرفة. ربّما يبدو ذلك غريبًا شأنه شأن أيّ «بدعة» جديدة في الفكر أو الأدب. ولْنشكر مجدَّدًا آدم فتحي على منحِنا هذه التّرجمة الصافية العذبة، التي جاءت في لغةٍ احترمت كتابة سيوران وأبت إلاّ أن تبلّغنا إياها شكلاً ومضمونًا. ولْنغص في عالم سيوران المُلْتَبِس، غير راجين فجراً ولا نورًا، لأنّ مثل هذا اللّيل يكشف لنا عن قدَرنا الحقيقي الكامن في إنسانيّتنا الممزّقة بين الأمل والألم والبشر والشّر والتّاريخ واليوتوبيا.

*** أيمن حسن**

شاعر وجامعي من تونس

في صنفين من المجتمعات

رسالة إلى صديق بعيد

من تلك البلاد التي كانت لنا ولم تعد لأحد، أنتَ[1] تلحّ عليّ بعد كلّ هذه السنوات من الصمت، كي أمدّك ببعض التفاصيل عمّا يشغلني، وكذلك عن هذا العالم «الرائع» الذي تقول إنّي محظوظ بسكناه والتجوال فيه. في وسعي إجابتك بأنّني رجل عاطل وإن هذا العالم لا روعة فيه. لكنّ إجابةً بهذا الاقتضاب، على الرغم من دقّتها، لن تفلح في إشباع فضولك ولا في الردّ الشافي على العديد من أسئلتك. أحدُ هذه الأسئلة، وهو يكاد لا يختلف عن اللوم، استرعى انتباهي بشكل خاصّ. تريد أن تعرف إن كنت أفكّر في العودة يومًا إلى لغتنا نحن، أم أنّي أعتزم البقاء وفيًّا لتلك الأخرى التي تنسب لي فيها رفاهةً لا أملكها، ولن أملكها أبدًا. قد يشبه الأمرُ سَرْدَ كابوسٍ لو أنّي فصّلتُ لك تاريخ علاقتي بهذا اللسان المُستعار، وكلماته المُفكّر

(١) صديق سيوران المعنيّ هنا هو الكاتب والفيلسوف الرّوماني كونستنتين نُويْكا (١٩٠٩-١٩٨٧) المعروف بدينو (Constantin Noïca dit Dinu) والّذي تعرّض للسّجن تحت النّظام الشّيوعي (راجع المقدّمة أعلاه)

فيها مرارًا وتكرارًا، المُهذّبة والمُدقّقة حدّ التلاشي، المرهقة بالفُوَيْرِقات، العاجزة عن التعبير لفرط ما عبّرَت، المرعبة لفرط الدقّة، المشحونة بالتعب والحشمة، الحييّة حتى في البذاءة. كيف تريد من سِيتِيٍّ[1] أن يتدبّر أمره معها، أن ينتبه إلى دلالتها الصافية وأن يستعملها بحرصٍ وأمانة؟ لا وجود لكلمة واحدة لا أشعر بالدوار أمام أناقتها المنهكة: لم يبق من أثر للتراب ولا للدم والروح في هذه الكلمات. إنّها محشورة في تراكيب متيبّسة ذات وقار جيفيّ يحصرها ويحدّد لها مواقع يصعب حتى على الله أن يخرجها منها. كم يلزم من قهوة وسجائر وقواميس من أجل كتابة جملة واحدة في هذه اللغة العصيّة النبيلة المحترمة أكثر ممّا أحبّ. لم أنتبه إلى ذلك للأسف إلاّ فيما بعد، أي بعد أن فاتني أوان الإشاحة عنها، وإلاّ ما كنتُ تخلّيتُ عن لغتنا قَطّ، تلك اللغة التي يحدث لي أن أتحسّر على رائحة طراوتها وعفونتها، ذلك الخليط من الشمس والوحل، تلك الدمامة المشربة بالحنين، تلك الوقاحة الرائعة. أمّا أن أعود إليها فهيهات. فاللغة التي كان عليّ أن أتبنّاها تستبقيني وتأسرني، تحديدًا، عن طريق ما تطلّبته منّي من جهود. هل أنا «خائن» كما أراك تلمّح؟ «ليس الوطن سوى مخيّم في الصحراء»، هكذا جاء في أحد نصوص التيبت. لكنّي لا أذهب إلى هذا الحدّ: أنا مستعدٌّ للتخلّى عن كلّ

---

(١) السيتّي (scythe): هو المنتمي إلى شعب السيتيّين الذين نزحوا من سهول أوراسيا إلى جنوبي روسيا في القرن ٨ ق.م وأسّسوا إمبراطوريّة عظيمة. وسيوران يلمّح هنا إلى جذوره السيتيّة كرومانيّ.

مشاهد العالم مقابل مشهد طفولتي. وإن كنت أرى لزامًا عليّ أن أضيف، أنّي لا أصنع من هذه الطفولة فردوسًا إلاّ بأثرٍ من شعوذات ذاكرتي أو إعاقاتها. جميعنا تلاحقنا أصولنا، لكنّ الشعور الذي تثيره فيّ أصولي لا يُترجَمُ حتمًا إلاّ بكلمات سلبيّة، في لغة جلد الذات والتسليم بالمهانة والرضَا بالكارثة. هل يدخل هذا النوع من الوطنيّة في مجال اهتمام طبّ الأمراض النفسيّة؟ أوافق على ذلك، إلاّ أنّي عاجز عن تصوّر وطنيّة من نوع آخر، ولعلّ من حقّي في ضوء مصيرَيْنَا، أن أرى هذا النوع من الوطنيّة ـ ولا داعي كي أخفي الأمر عنك ـ النوع الوحيد المعقول.

لعلّك أسعد منّي حظًّا لقناعتك بغبار مسقط الرأس، إضافة إلى قدرتك على تحمّل كلّ الأنظمة بما في ذلك أكثرها صرامة. ربّما ليس عن قلّة حنين إلى التحرّر والفوضى، لكنّي لا أعرف ذهنًا أكثر مقاومة من ذهنك لخرافات «الديموقراطيّة». لقد مرّ بي عهد، أعترف بذلك، كنت أنفر منها مثلك تمامًا وربّما أكثر منك. كنت شابًّا ولم يكن من السهل عليّ التسليم بحقائق غير حقائقي، ولا القبول بأن يكون لخصمي حقائق يعلن عنها أو يفرضها. أن يمكن لأحزاب مواجهة بعضها بعضًا دون إبادة بعضها بعضًا كان أمرًا فوق قدرتي على الفهم. كنت أرى في النظام البرلمانيّ معرّةَ النوع البشريّ، رمزَ إنسانيّةٍ خائرة القوى، لا حماسة لها ولا قناعة، عاجزة عن المُطلق، محرومة من المستقبل، محدودة في كلّ شيء، غير قادرة على السُمُوّ إلى تلك الحكمة الرفيعة التي كانت تعلّمني أن هدف كلّ محادثة هو القضاء على الطرف المُقابل. أمّا الأنظمة التي تسعى، على

العكس من ذلك، إلى إلغاء النظام البرلمانيّ والحلول محلّه، فكانت تبدو لي *جميلة* بدون استثناء، موافقةً لحركة الحياة، آلهتي في ذلك الوقت. إنّ من لم يفتتن بكلّ أنواع التطرّف قبل بلوغ الثلاثين هو مثار سؤال، لا أعرف إن كان عليّ أن أُعجب به أم أن أحتقره، أن أعتبره قديّسًا أم جيفة. أم أنّ قدراته البيولوجيّة خانته فاختار لنفسه موقعًا فوق الزمن أو تحته؟ ليس مهمًّا أن يكون قصوره إيجابيًّا أو سلبيًّا، فهو مريب لمجرّد أنّه خالٍ من إرادة التحطيم خالٍ من الرغبة فيه. لقد انتصر على الشيطان، بل لعلّه وهذا أخطر، لم يكن مسكونًا به أصلاً. أن نعيش حقًّا يعني أن نرفض الآخرين، فالقبول بهم يتطلّب التخلّي عن الأشياء، كبح جماح الذات، التصرّف ضدّ الفطرة، *إضعاف* النفس. نحن لا نتصوّر الحريّة إلاّ لأنفسنا ولا نبسطها على القريبين منّا إلاّ بشقّ النفس، من ثمّ هشاشة الليبراليّة بوصفها تحدّيًا لغرائزنا، نجاحًا عابرًا شبيهًا بالمعجزة، وضعًا استثنائيًّا على النقيض من ضروراتنا العميقة. نحن بطبعنا غير صالحين لليبراليّة، وما كنّا لننفتح عليها لولا استنزاف قوانا. إنّه بؤس جنسٍ مضطرّ إلى أن يتدنّى من جهة كي يتسامى من جهة أخرى، ولا أحد من ممثّليه يبدو مستجيبًا إلى مبادئ «إنسانيّة» إلاّ في حالات التداعي المبكّر. أمّا التسامح فهو وظيفة عاطفة مُطفأة، ثمرة لاتوازن ناتج لا عن إفراط في الطاقة بل عن نقصانها، لذلك فهو لا يجذب الشباب. لا يمكن للاقتراب من الصراعات السياسيّة أن يمرّ دون عواقب. لقد اتّخذ عصرنا من هذه الصراعات ما يُشبه العبادة ومن ثمّ هيئته الدمويّة. لا شيء من هزّاتنا الحديثة إلاّ وهو نابع من هذه الصراعات، من

سهولة اعتناقها لأيّ شذوذ وترجمته إلى فعل. امنحوا الشباب أملاً في مجزرة أو فرصة لارتكابها وسيتبعونكم بلا تبصّر. مع مغادرتنا للمراهقة نكون بالضرورة متعصّبين. وقد كنت كذلك أنا أيضًا وإلى حدّ مثير للهزء. هل تذكر أيّام كنت أُطلق تلك الدعابات الناريّة، التي لم تكن تعبيرًا عن رغبة في الفضيحة بقدر ما كانت تعبيرًا عن حاجة إلى الهرب من حمّى حارقة، لو لم أجد لها متنفّسًا في الجنون اللفظيّ لما وجدتْ صعوبةً في تحويلي إلى رماد؟ اعتقدتُ أيّامها أنّ أمراض عصرنا لا سبب لها سوى الشيوخ، فأطلقتُ فكرةَ تصفيةِ كلّ المواطنين الذين تجاوزوا الأربعين، سنّ بداية الهرَم والتحنّط، والمنعطف الذي كان يطيب لي الاعتقاد بأنّ كلّ فرد يتجاوزه يصبح لعنة على الأُمّة وعبئًا على المجموعة. أعجبني المشروع أيّما إعجاب حتى أنّي لم أُحجم عن إفشائه، لكنّ المعنيّين به استقبلوه بفتور واعتبروني من أكَلةِ لُحوم البشر. هكذا بدأت مسيرتي كمصلح للبشريّة في ارتباط تامّ بسوء الطالع. أنت نفسك، على الرغم من أنّك معطاء، بل ومقدام في أوقاتك، لم تبخل عليّ بالاحتراز والاعتراض حتى دفعتني إلى إهمال المشروع. هل كان مشروعي جديرًا بالإدانة؟ بل كان تعبيرًا بسيطًا عمّا يتمنّاه في قرارة نفسه كلّ إنسان متعلّق ببلده: القضاء على نصف مُواطنيه.

أفكّر اليوم في تلك اللحظات المفعمة بالحماسة والاندفاع، وفي تلك النظريّات الخرقاء التي كانت تخرّب عقلي وتغشّيه، فلا أعزوها إلى أحلام بالإحسان للبشريّة وتدميرها ولا إلى هوسٍ بما لا أدري من النقاء، بل أنسبها إلى حزن بهيميّ اختفى تحت قناع

الحمِيّة، وأخذ ينتشر على حسابي على الرغم من أنّي كنت شريكًا له، وقد أعجبني أن لا أضطرّ إلى الاختيار مثل كثيرين آخرين، بين الباهت والفظيع. أمّا وقد آل إليّ الفظيع فما الذي أطلب أفضل منه؟ كنت أملك روح ذئب، وكانت وحشيّتي تقتات من ذاتها، فتشبعني وتملؤني زهوًا. كنتُ في المُحصّلة أسعد المستذئبين. كنت أصبو إلى المجد وأشيح عنه في حركة واحدة. فما قيمة المجد ما أن نحصل عليه، ما دام يقصينا من الماضي ولا يفرضنا إلاّ على الأجيال الراهنة والقادمة؟ ماذا يعني أن نكون معروفين إذا ظللنا نكرات في عيني ذاك الحكيم أو ذاك المجنون، ماركوس أوروليوس[(١)] أو نيرون[(٢)]؟ لن يُتاح لنا إذنْ أن نوجد في نظر الكثير من قدواتنا، ولن يُتاح لأسمائنا أن تكون ذات أثر يُذكر في القرون التي سبقتنا. فما أهميّة القرون اللاحقة؟ ما أهميّة المستقبل، نصف الزمن ذاك، بالنسبة إلى من تعلّقت همّته بالأبديّة؟

لن أقول لك عن طريق أيّ جدل ولا كيف استطعت الفكاك من كلّ ذلك السُعار، فهو حديث طويل قد يتطلّب إحدى تلك المحادثات التي يعرف سرّها، أو كان يعرف سرّها البلقان[(٣)].

---

(١) ماركوس أوريليوس (Marc Aurèle) الإمبراطور الرومانيّ (١٢١- ١٨٠) الذي حكم بين ١٦١ و١٨٠ وكان أحد رموز الفلسفة الرواقيّة.

(٢) نيرون: الإمبراطور الرومانيّ (٣٧-٦٨) الذي اعتلى سدة الحكم في السابعة عشرة من عمره وحكم بين ٥٤ و٦٨ وفي عهده كان حريق روما الشهير.

(٣) البلقان: سلسلة الجبال المعروفة، التي أصبح اسمها يُطلق على الجنوب الشرقيّ من أوروبا ويُكنّى به عن العنف وكثرة الخلافات والصراعات.

وأيًّا كان الجدل الذي خضته فهو أبعد من أن يكون السبب الوحيد في تغيير وجهتي. لقد ساهم في ذلك عامل آخر أقرب إلى الطبيعة وأشدّ وقعًا: عامل السنّ وأعراضه التي لا تخطئها العين، إذ سرعان ما أخذت تظهر عليّ أكثر فأكثر علامات التسامح، المنبئة في ما بدا لي، عن بعض الاضطرابات الباطنيّة، أو بمرض لاشكّ أنّه عضال. ولعلّ أكثر ما قرع نواقيس الخطر لديّ أنّي لم أعد أملك القوّة الكافية لأتمنّى موت عدوّ، بل أصبحت أفهمه وأقارن غلّي بغِلّه: كان موجودًا وكنت ويا للسقوط المدوّي سعيدًا بوجوده. حتى أحقادي، منبع بهجتي، أخذ أوراها يخبو وأخذت نارها تتناقص يومًا بعد يوم جارفةً معها أفضل ما فيّ. ما العمل؟ إلى أيّ هاوية أنزلق؟ ذاك ما كنت أطرحه على نفسي دون انقطاع. وكلّما كانت طاقتي تضمحلّ كان ميلي نحو التسامح يتفاقم. لم أعد شابًّا ولا ريب. أصبح *الآخر* يبدو لي ممكنًا بل وحقيقيًّا. كنت أودّع *المُفرد ومِلْكيّته* وأستسلم لغواية الحكمة. هل انتهى أمري؟ لابدّ من ذلك كي يصبح أحدنا ديموقراطيًّا *مُخلصًا*. إلاّ أنّي اكتشفت ويا لسعادتي أنّي لست في هذا الوضع تمامًا، فقد ظللت محافظًا على أثرٍ من التعصّب من بين أنقاض الشباب: أن لا أقبل النقاش في أيٍّ من مبادئي الجديدة. لقد أصبحت ليبراليًّا متطرّفًا ومازلت، وهو تناقض يُسعدني ولامعقوليّةٌ أجد فيها نجاتي. أتطلّع أحيانًا إلى أن أكون نموذج المعتدل الكامل وأبتهج في الوقت نفسه بعدم نجاحي في ذلك، لشدّة خوفي من الخَرَف. ولعلّي أكفّ عن ذلك الخوف في يوم قريب فأدنو من ذلك الاتّزان الكامل الذي أحلم به

أحيانًا. أمّا إذا عنَّ للسنوات أن تقودك كما أتمنّى إلى سقوط شبيه بسقوطي، فقد نجلس في نهاية القرن هناك جنبًا إلى جنب في أحد البرلمانات المبعوثة من رماد، وقد يُتاح لنا هكذا، خَرِفَيْنِ أنا وأنتَ، أن نحضر إحدى تلك المسرحيّات السحريّة المُعادة. نحن لا نصبح متسامحين إلاّ بقدر ما نفقد حيويّتنا، بقدر ما يطيب لنا الوقوع في الطفولة، بقدر ما يبلغ بنا الإعياء حدّ العجز عن تعذيب غيرنا بالحبّ أو بالكراهية.

ها أنت ترى أنّي أملك رؤًى «متفتّحة» بخصوص كلّ الأمور. وهي متفتّحة إلى حدّ أنّي لم أعد أقف لي على رأيٍ محدّدٍ في أيّ مسألة. ولعلّك تحكم على الأمر بنفسك إذ تسألني: «هل أنت مصرّ على آرائك المسبقة تُجاه جارتنا الغربيّة الصغيرة، وهل تحتفظ لها بنفس البغضاء؟»، فلا أعرف بماذا أجيبك، بل لا أملك إلاّ أن أُدهشك أو أن أخيّب ظنّك، فنحن والحقّ يُقال، لا نملك عن هنغاريا نفس التجربة.

أنتَ وُلِدتَ بمنأى عن جبال الكارابات[1] ولم يُتح لك أن تعرف الجندرمة الهنغاريّين، رعب طفولتي الترانسيلفانيّة[2]. أمّا أنا فكنت أرى أحدهم من بعيد فيتملّكني الفزع وأجري لا ألوي على شيء. كانوا يمثّلون الغريب العدوّ، كانوا الحقد وقد

---

(١) الكارابات (Les Carpates): سلسلة الجبال التي تبدأ من تشيكيا وتمتد إلى سلوفاكيا، بولندا، هنغاريا، أوكرانيا في شبه قوس حتى نهر الدانوب جنوبي رومانيا على الحدود مع صربيا.

(٢) الترانسيلفانيّة (transylvaine): المنتمية إلى أقليم ترانسيلفانيا، ويعتبر القلب التاريخي لرومانيا ذات الأقاليم التسعة، ويضم عدة محافظات.

تجسّد. بسببهم بغضتُ كلّ هنغاريٍّ بحماسةٍ هنغاريّة خالصة. كي ترى كم كانوا يهمّونني. ثمّ تغيّرت الظروف ولم يبق لديّ ما يُحفظني عليهم. لكنّي ظللتُ لمدّة لا أتصوّر طاغيةً إلاّ استحضرتُ نقائصهم وغرورهم. من الذي يثور؟ من الذي يتمرّد؟ ليس العبد إلاّ في ما ندر، بل هو الطاغية الذي أصبح عبدًا. لقد عرف الهنغاريّون الطغيان عن كثب لفرط ما مارسوه بكفاءة لا تضاهى، وفي وسع أقليّات المَلَكيّة القديمة أن تشهد على ذلك. أتقنوا في ماضيهم لَعِبَ دور السادة، لذلك كانوا في عصرنا أقلَّ أُممِ أوروبّا الوسطى قدرةً على تحمُّل العبوديّة. وكيف لمن استمرأ طعم القيادة أن لا يستمرئ طعم الحريّة؟ كانوا ذوي تقاليد عريقة في القمع مُحنّكين في طرُق الإذلال واللاتسامح، لذلك سرعان ما انتفضوا على نظام لم يختلف في الكثير عن ذاك الذي سلّطوه هم أنفسهم على شعوب أخرى. أمّا نحن يا صديقي العزيز، وقد عَدِمْنَا الحظَّ في أن نكون قامعين، فليس من حظّنا أن نكون متمرّدين. لقد حُرِمْنا من تلك السعادة المزدوجة ولم يبقَ أمامنا إلاّ أن نحمل أغلالنا كما ينبغي لها أن تُحْمَل. بل إنّي لن أكون مرتاحًا لو أنكرتُ فضائل دعتِنا ونُبْلَ خُنوعنا، على الرغم من اعترافي بأنّ تواضعنا المفرط يأخذنا إلى أقاصٍ مخيفة، وأنّ كلّ هذا القدْر من الحكمة قد تجاوز الحدّ، حتى بتُّ لا آمن أحيانًا أن يصيبني بالإحباط. وإنّي لأعترف لك بأنّي أحسد جيراننا على صلَفهم، بل أحسدهم حتى على لغتهم، تلك الشرسة بامتياز، ذات الجمال الذي لا أثر فيه لما هو بشريّ، ذات الجرس القادم من خارج هذا الكون، الجهيرة اللاذعة، الجديرة

بالصلوات، الصالحة للزئير وللنحيب، الطالعة من الجحيم لنشر نبرته وبريقه. وعلى الرغم من كوني لا أعرف من هذه اللغة إلاّ الشتائم فإنّي مُعجبٌ بها كلّ الإعجاب، لا أملّ سماعها، ولا أملك غير الوقوع في أسر فتنتها وفظاعتها، في أسر كلّ تلك الكلمات المجبولة من كوثرٍ ومن سيانور[١]، كأفضل ما يلائم الاحتضار. علينا أن نموت بالهنغاريّة أو أن نتخلّى عن الموت.

أصبحتُ حقًّا أقلّ فأقلّ بغضًا لسادتي القدامى. وإنّي لأنظر إليهم بشيء من التمعّن، حتى في أيّام عزّهم، فأرى أنّهم كانوا دائمًا وحيدين وسط أوروبّا، معزولين في عُجْبهم وحسراتهم دون أيّ صلة عميقة بالأمم الأخرى. لقد شنّوا بعض الغارات على الغرب حيث أمكن لهم أن يستعرضوا ويبذّروا وحشيّتهم البدائيّة، لكنّهم سرعان ما انحسروا وتدحرجوا من فاتحين إلى مقيمين على ضفاف الدانوب[٢]، كي يستهلكوا غرائزهم في الغناء والشكوى. ثمّة لدى هؤلاء الهُونِيّين[٣] المُرهَفين كآبةٌ مجبولة من الوحشيّة المكبوتة، لن نعثر لها على نظير في مكان آخر. لكأنّنا أمام الدم وهو يشرع في الحلم بنفسه، ثمّ ينتهي به الأمر إلى أن ينحلّ في الموسيقى. لقد ظلّوا قريبين من جوهرهم على الرغم من إصابتهم بل وعلى الرغم من تأثّرهم بالمدنيّة. لم ينسوا أنّهم

---

(١) السيانور (Le cyanure): المادة السامة المعروفة، وفضّلنا ترجمتها صوتيًّا.

(٢) الدانوب (Le Danube): ثاني أطول أنهار أوروبّا بعد الفولغا.

(٣) الهُونِيُّون (Les Huns): من شعوب آسيا الوسطى الذين تختلف الآراء في تحديدهم ويُرجّح أنّهم ظهروا في أوروبا بداية من القرن الرابع.

سليلو عصابة لا مثيل لها. ولمّا كانوا مطبوعين بقَدَريّةٍ حقيقيّة ومسرحيّة في الوقت نفسه، تمنحهم هيئةً أقرب إلى الرومنسيّة منها إلى التراجيديا، فقد تعذّر عليهم الإخلال بالدور المنوط بعهدتهم في العالم الحديث: إعادة الاعتبار إلى الشوفينيّة عن طريق تطعيمها بما يكفي من الأبّهة والطابع القَدَريّ كي تبدو جذّابةً في عيني الملاحظ اللامُبالي. وإنّي لميّالٌ إلى الاعتراف لهم بالفضل، تحديدًا، لأنّهم كانوا السبب في تعرّضي إلى أسوأ أنواع المهانة، مهانة أن أولد عبدًا، مع ما يصحبها من «ألم العار»، أقسى أنواع الألم وفق أحد الأخلاقيّين. ألم تخرج أنت أيضًا ببعض اللذّة من جهدك في التعامل بموضوعيّة تجاه من أهانك وهزئ بك وآذاك، خاصّة إذا كنتَ شريكه السرّي في الكثير من رذائله وبؤسه؟ لا تستنتج من ذلك أنّي أطمح إلى الارتقاء إلى مرتبة الهنغاريّ، فأنا أبعد ما أكون عن هذا المطمح الصعب عارفٌ بحدودي حريص على الالتزام بها. لكنّي من جهةٍ أخرى عارفٌ أيضًا بحدود جارتنا، ويكفي أن تنقص حماستي تجاهها ولو بدرجة واحدة، كي أكفّ عن الاعتزاز بالشرف الذي أسبغَتْهُ عليَّ عند اضطهادها لي.

إنّ الشعوب تثير فينا من الأحاسيس المتناقضة أكثر ممّا يثيره الأفراد. نحن نحبّها ونبغضها في الوقت نفسه. نجعلُ منها موضوع تعلُّقٍ ونُفور كأنّها لا تستحقّ منّا عاطفة مُحَدَّدةَ المعالم. من ثمّ يبدو لي تحيّزك إلى شعوب الغرب، التي لا أراك منتبها إلى عيوبها بدقّة، تحيّزًا ناشئًا عن المسافة، عن خطأ بصريّ أو عن حنين إلى ما هو بعيد المنال. إنّك لا تتبيّن نقائص المجتمع

البورجوازيّ، بل يُخَيّلُ إليّ أنّك لا تخلو من بعض المحاباة تجاهه. وليس غريبًا وأنت بعيد أن تحمل عنه فكرة عجائبيّة. أمّا وأنا أعرفه عن كثب فإنّ من واجبي أن أحارب الأوهام التي قد تغذّيها في شأنه. لا لأنّه يثير نفوري بشكل مُطلق - فأنت تعرف ضعفي تُجاه البشاعة - بل لأنّ تَحَمُّلهُ يتطلّب من انعدام الإحساس ما يفوقُ بكثير مُدّخراتي من الكلَبيّة. لن يكفي القول إنّ المظالم وفيرةٌ في هذا المجتمع فهو في الحقيقة خُلاصةُ مظالم. وحدهم العاطلون والطفيليّون والخبراء في الخسّة والسَفَلَةُ الصغار والكبار يستفيدون ممّا يُعرض من ثروة وما يُفتَخَرُ به من رخاء، وكلّها في النهاية مُجرّدُ مُتع ووفرة سطحيّة. إنّ هذا المجتمع ليُخفي تحت بريقه الساطع بؤسًا أضنٌّ بك عن تفصيله، ولا شكّ أنّه محميٌّ بمعجزة، وإلاّ ما كُنّا نفهم كيف لا يتحوّل إلى غبار أمام عيوننا، أو كيف لا يقع تفجيره على الفور.

قد تعترض عليّ بالقول «إنّ مجتمعنا ليس أفضل منه في شيء بل هو على العكس تمامًا». أسلّم لك بذلك. وتلك هي المشكلة أصلاً. نحن نقف أمام صنفين من المجتمعات لا يُطاقان. والخطير في الأمر أنّ مفاسد مجتمعك هي التي تسمح لهذا بالاستمرار في مفاسده، وأنّ هذا لا ينجح في الترويج لفظاعاته هنا إلاّ بالمقارنة مع الفظاعات التي تُرتكب هناك. إنّ اللوم الأساسيّ الذي يمكن أن يوجّه إلى نظامكم هو القضاء على اليوتوبيا، شرط تجدّد المؤسّسات والشعوب. لقد فهمت البورجوازيّة أيّ غُنْمٍ يمكن أن تغنمه من ذلك في مواجهة خصوم «الأمر الواقع». لقدّ حصلت على «معجزتها» التي تؤمّن لها النجاة

وتحفظها من الدمار الفوريّ: فشل الضفّة المقابلة، مشهد فكرة عظيمة مُشوّهة، الخيبة الناشئة عن ذلك والتي ما إن تستولي على العقول حتى تشلّها. خيبة لم تكن حقًّا في الحُسبان، اِعتَبَرَها البورجوازيُّ هبةً من العناية الإلهيّة فإذا هو يعيش عليها ويستخلص منها شرط إحساسه بالأمان. إنّ الجموع لا تتزحزح إذا لم يكن عليها أن تختار إلاّ بين ويلات الحاضر وويلات المستقبل. لقد استسلمت لما تعانيه من ويلات وليس من مصلحتها أن تراهن على أخرى مجهولة لكنّها أكيدة. إنّ الويلات التي يمكن التكهّن بها لا تُحفّز المُخيّلة، ولم يسبق لثورةٍ أن اندلعت باسم مستقبل مظلم أو باسم نبوءة قاتمة. هل كان في وسع أحد أن يتوقّع في القرن الماضي، أنّ المجتمع الجديد وبسبب رذائله وفساده، سيسمح للمجتمع القديم بالاستمرار بل وبالتماسك أكثر، وأنّ الممكن وقد أصبح حقيقة، سيهبّ إلى نجدة الغابر؟

هنا كما هو الشأن هناك، نحن جميعًا وقوفٌ في نقطة العطالة، وقد تساوينا في السقوط من تلك السذاجة التي يتشكّلُ فيها الهذيان حول المستقبل. مع طول المدّة تصبح الحياة خانقة بدون يوتوبيا، على الأقلّ بالنسبة إلى الجموع، ولابدّ للعالم من هذيان جديد كي لا يتحجّر. تلك هي البداهة الوحيدة التي نخرج بها من تحليل الحاضر. في انتظار ذلك نظلّ نحن هنا في وضع لا يخلو من غرابة. تخيّل مجتمعًا مزدحمًا بالشكوك، حيث لاَ أحد يؤمن تمامًا بأيّ شيء باستثناء بعض التائهين، وحيث يدّعي الجميع وقد خلوا من أيّ معتقد أو يقين، الانتسابَ إلى الحريّة،

دون أن يحترم أيٌّ منهم شكلَ الحكم الذي يدافع عنها ويجسّدها. إنّها مُثُلٌ دون مضمون، أو لنقل كي نستعمل عبارة لا تقلّ خلطًا، أساطير دون ماهيّة. أنت تشعر بالخيبة أمام وعودٍ ما كان لها أن تُنجز، أمّا نحن فنشعر بالخيبة لغياب الوعود أصلاً. لكنّنا واعون بالفرصة التي يتيحها مثل هذا النظام حين يَتركُ للذكاءِ الحبلَ على الغارب، ولا يُخضعه على الأقلّ حتى الآن، إلى صرامةِ أيّ أوامر. لا يؤمن البورجوازيّ بشيء وتلك حقيقة، إلاّ أنّها إذا سمحتَ لي بالقول، الناحيةُ الإيجابيّةُ في عَدَمِه، ما دامت الحريّة لا تظهر إلاّ في فراغ المُعتقدات، في غياب المُسَلَّمات، فقط حيث ليس للقوانين سلطة أكثر ممّا للفرضيّة. ولو اعترض عليّ أحدهم بالقول إنّ البورجوازيّ يؤمن بشيء هو أيضًا، وإنّ المال يقوم لديه بوظيفة العقيدة، لرددتُ بأنّ هذه العقيدة على الرغم من بشاعتها، تملك من ملامح الغرابة ما يجعلها تبدو الأخفّ وطأة على العقل. إنّنا نغفر للآخرين ثروتهم إذا تركوا لنا حريّة الموت جوعًا *على طريقتنا*. كلاّ، ليس شديدَ السوءِ هذا المجتمع الذي لا يهتمّ بك بقدر ما يُهملك، يضمن لك الحقّ في الهجوم عليه، يدعوك إلى ذلك بل ويجبرك عليه في لحظات كسَلِه، حين لا يملك من الطاقة ما يكفي كي يفعل ذلك بنفسه. هذا المجتمع في المُحصّلة لا يقلّ استخفافًا بمصيره عن استخفافه بمصيرك، لذلك هو لا يتدخّل بأيّ شكل في مآسيك، لا ليخفّف منها ولا ليزيدها وطأة. وإذا استغلّك فهو يفعل بشكل آليّ وليس عن إضمار أو خبث، تمامًا كما هو لائقٌ ببهائم مرهقةٍ شبعانة، تفشّت فيها الشكوكيّة كما تفشّت في

ضحاياها. إنّ الفروق بين الأنظمة أقلّ ممّا يُخيّل إلى البعض. أنتم وحيدون بالرغم عنكم ونحن وحيدون عن طواعية. فهل الفرق كبير بين الجحيم وفردوسٍ خَرِب؟ المجتمعات كلّها سيّئة لكنّي أعترف بوجود درجات للسوء، وإذا كنت قد اخترتُ هذا المجتمع فلأنّي أُتقن التمييز بين فويرقات الأسوأ.

إنّ الحريّة كما قلت لك، تحتاج إلى الفراغ كي تظهر. هي تقتضيه وهو يقضي عليها. شرطُ حضورها هو في الوقت نفسه شرط إلغائها، فهي تفتقر إلى الأسس، وكلّما اقتربت من الاكتمال ازدادت هشاشتها، لأنّ كلّ شيء يتهدّدها حتى علّة وجودها. وإن الإنسان لَيَبْدُو أضعفَ من أن يتحمّلها أو أن يستحقّها، بل إنّ المكاسب التي تصله منها لَتَسْحقُهُ وتثقل عليه بما ينجرّ عنها من شطط، حتى أنّه يفضّل عليها شطط الرعب. إلى هذه المساوئ تنضاف أخرى: المجتمع البورجوازيّ يلغي الغموض والمطلق والنظام، وليس له من الميتافيزيقا الحقيقيّة أكثر ممّا له من البوليس الحقيقيّ، لذلك هو يقوم بردّ الإنسان إلى نفسه مع إبعاده عن ماهيّته الحقيقية وعن أعماقه الخاصّة. وإذا كانت الحريّة مفتقرةً إلى الجذور سطحيّةً في جوهرها، فلأنّها هشّةٌ في ذاتها، لا وسيلة لها كي تحافظ على بقائها وسط المخاطر التي تتهدّدها من داخلها ومن خارجها. وهي بالإضافة إلى ذلك لا تظهر إلاّ في كنَف نظام محتضر، حين تشرع طبقة في الأفول والذوبان: إنّ وهَنَ الأرستقراطيّة هو الذي سمح للقرن الثامن عشر بذلك التهويم الرائع، وإنّ وهَنَ البورجوازيّة هو الذي يسمح لنا اليوم بالفراغ إلى نزواتنا. لا تزدهر الحريّات

إلاّ في جسد اجتماعيّ مريض. التسامح والعجز مترادفان. يتَجلّى ذلك في السياسة كما يتجلّى في كلّ شيء. حين تراءت لي هذه الحقيقة شعرتُ بأنّ الأرض تغور من تحت قدميّ. بل إنّي حتى اليوم ومهما قلتُ لي «إنّك جزءٌ من مجتمعٍ بشرٍ أحرار»، لا أحسّ بالاعتزاز إلاّ رافقهُ دائمًا إحساس بالهلع والبطلان ناشئ عن يقيني الفظيع. إنّ الحريّة لا تشغل في مجرى الزمن أكثر ممّا تشغله لحظة انخطاف في حياة صُوفِيّ. إنّها تُفلتُ منّا تحديدًا لحظةَ نحاول الإمساك بها والتعبير عنها، فليس في وسع أحد أن يستمتع بها دون أن يرتجف. الحريةُ فانيةٌ بامتياز، لذلك هي ما أن تنشأ حتى تعلن عن فقدانها كلّ مستقبل، وتأخذ في العمل بكلّ قواها الملغومة من أجل إنكار نفسها والشروع في الاحتضار. ألا يختلط حبُّنا لها ببعض الانحراف؟ أليس مُروِّعًا أن نعبد ما لا يريد البقاء ولا يقدر عليه؟ بالنسبة إليكم وقد فقدتموها هي كلّ شيء، أمّا بالنسبة إلينا ونحن نملكها فهي ليست سوى وهم، لعلمنا بأنّنا سنضيعها ولأنّها في كلّ الأحوال لم توجد إلاّ لتضيع. لذلك نحن نبحلق داخل عدمنا في كلّ اتّجاه، دون أن ننسى على الرغم من ذلك فُرصَ الخلاص الكامنة في ذواتنا. والحقّ أنّه لا وجود لعدمٍ كامل في التاريخ. ولعلّك تخطئ إذا تصوّرت أنّ هذا الغياب الخارق المفروض علينا والذي أستمتع وأشقى بالكشف لك عنه، خالٍ من أيّ هدف. إنّي ألمح فيه ـ ولا أدري هل هذا حدس أم هلوسة؟ ـ ما يشبه انتظار آلهة أخرى. أي آلهة؟ ليس في وسع أحد أن يجيب. ما أعلمه ويعلمه الجميع أنّ وضعًا كوضعنا لا يُمكنُ أن يُحْتَمَلَ إلى ما لانهاية.

ثمّة في أعمق أعماق وعينا أملٌ يُؤلمنا وخشيةٌ تبعث فينا الحماسة. وليس في وسع الأمم العجوز مهما بلِيت أن تستغني عن معبودات جديدة، إلاّ إذا رضيت بالموت. وإذا لم يكن الغرب قد أصيب إصابة قاتلة، فإنّ عليه أن يعيد التفكير في كلّ الأفكار التي سُرِقت منه وتمّ تطبيق ما زُوّرَ منها في مكان آخر. أعني أنّ عليه إذا أراد التألّق من جديد بشيء من حراكٍ أو ببقيّة من شرف، أن يستعيد الطوباويّات التي تخلّى عنها بحثًا عن الرفاهة، وتركها للآخرين متنازلاً بذلك عن عبقريّته وعن رسالته. لقد كان من واجبه أن يضع الشيوعيّة موضع التطبيق، أن يوفّق بينها وبين تقاليده، أن يؤنسنها، أن يحرّرها ثمّ يعرضها على العالم. لكنّه عوضًا عن ذلك ترك للشرق أن يحقّق ما لا يتحقّق وأن يستمدّ قوّةً ومجدًا من أجمل أوهام العصر. لقد بدا وجِلاً مسالمًا في معركة الإيديولوجيات وهنّأه على ذلك الكثيرون في حين كان ينبغي عليهم توبيخه. لا مجال لبسط الهيمنة في عصرنا دون مدد من مبادئ عليا كاذبة تستعملها الشعوب الكاسرة لإخفاء غرائزها ومقاصدها. ما أن غادر الإنسانُ الواقعَ إلى الفكرة والفكرةَ إلى الإيديولوجيا حتى انزلق نحو كونٍ فرعيّ، نحو عالم من المُشتَقّات، حيث يكتسب الوهمُ فضائل المُعطى الأساسيّ. ليس هذا الانزلاق إلاّ ثمرة كلّ ثورات الغرب وهرطقاته، وعلى الرغم من ذلك أبى الغرب أن يستخلص منها نتائجها الأخيرة: لا هو قام بالثورة المنوطة بعهدته والتي يطالبُ بها ماضيهِ كُلُّه، ولا هو ذهب بالتغييرات التي أحدثها إلى نهاياتها القصوى. إنّ مجازفته بالتنازل عن ميراثه لفائدة أعدائه قد تُعرّض خاتمته للخطر

وقد تُضيّع عليه آخر فرصة. لكنّه لم يكتَفِ بخيانة كلّ أولئك الروّاد، كلّ أولائك المنشقّين الذين أعدّوه وكوّنوه بدايةً من لوثر[1] وصولاً إلى ماركس[2]، بل هو مازال ينتظر أن يجيئه من الخارج من يقوم عنه بثورته ويعيد إليه طوباويّاته وأحلامه. هل يفهم أخيرًا أنّه لن يكون صاحب مستقبل سياسيّ ولن يلعب دورًا مهمًّا إن هو لم يستعد في نفسه أحلامه القديمة ويوتوبيّاته العتيقة، وكذلك أكاذيبَ غروره الهرم؟ أمّا الآن فها هم خُصومه وقد تحوّلوا إلى منظّرين للواجب الذي تقاعس عنه، يشيدون إمبراطوريّتهم على خموله ووهنه. أيّ لعنة أصابته كي لا يُنتج في ذروة ازدهاره غير هؤلاء البقّالين، رجال الأعمال، الدسّاسين ذوي النظرات الباهتة والابتسامات الشوهاء، الذين نلقاهم في كلّ مكان، في إيطاليا، في فرنسا، في أنجلترا، وحتى في ألمانيا؟ هل كان من الواجب على حضارةٍ بمثل هذه الدقّة وهذا التعقيد أن تفضي إلى مثل هؤلاء الأوباش؟ ربّما كان لابدّ من ذلك، ربّما كان لابدّ من المرور بالسفالة كي يُتاح لنا أن نتخيّل نوعًا آخر من البشر. ولمّا كنتُ ليبراليًّا حقيقيًّا فإنّي لا أريد أن أبلغ بالسخط حدَّ اللاتسامح ولا أن أترك لمزاجي أن يذهب بي كلّ مذهب، وإن كان يطيب لنا جميعًا أن نخرج أحيانًا على المبادئ التي تنتسب إلى سخائنا. أردتُ ببساطة أن أنبّهك إلى أنّ هذا العالم الذي لا

---

(١) لوثر مارتين (Martin Luther) رجل الدين والمنظّر المسيحي (١٤٨٣-١٥٤٦) رائد الإصلاح البروتستانتيّ.

(٢) ماركس كارل (Karl Marx) الفيلسوف والمنظّر الاجتماعي الألماني المعروف (١٨١٨-١٨٨٣) رائد الفكر الشيوعيّ.

روعة فيه، يمكن بشكل ما أن يُصبح رائعًا حقًّا، لو أنّه قَبِلَ، لا بأن يُلغى (فميله إلى ذلك فوق الحدّ)، بل بأن يُغلق حساب ما فَضَل منه عن طريق تحمُّل مهمّات مستحيلة، هي على النقيض من هذا *الصواب* البشع الذي يشوّهه ويُهلكه.

إنّ المشاعر التي يثيرها فيّ هذا العالم لا تقلّ خلْطًا عن تلك التي أكنّها لبلادي، أو لهنغاريا، أو لجارتنا الكبيرة التي أراك أقرب منّي إلى تقدير جيرتها المزعجة. لم أفكّر في هذه الجارة الكبيرة إلاّ خطرت لي صورةٌ مهولة للخير والشرّ وانتابني من الأحاسيس في شأن مصيرها ما أخشى أن أعبّر عنه فأُتّهم بالاختلاق. لا أطمع البتّة في جعلك تغيّر رأيك فيها، فكلّ ما أريده هو أن تعرف ما الذي تمثّله بالنسبة إليّ وأيّ مكان لها بين وساوسي. كلمّا ازددتُ تفكيرًا فيها ازددتُ يقينًا بأنّها لم تنشأ على مرّ القرون كما تنشأ أمّة، بل كما ينشأ كونٌ لا تنتمي لحظاتُ تطوّره إلى التاريخ بقدر ما تنتمي إلى كوسموغونيا[1] مُعتمة مرعبة. انظر إلى هؤلاء القياصرة المتقاطرين مثل آلهة عرجاء، مثل عمالقةٍ تتجاذبهم القداسة والجريمة ويطيح بهم الرعب كما تطيح بهم الصلاة. لقد كانوا، شأنهم في ذلك شأن الطغاة الجدد الذين حلّوا محلّهم، أقرب إلى حيويّة بيولوجيّة منهم إلى أنيميا بشريّة. لا دور لهؤلاء المستبدّين غير تأبيد النسغ الأوّل والفساد البدئيّ، وقد انتصروا علينا جميعًا بفضل ذخيرتهم اللامحدودة من

---

(١) كوسموغونيا (Cosmogonie): علم نشأة الكون ويسمّيه البعض التكوينيّة، إلاّ أننا فضّلنا هذه الترجمة تجنّبًا للالتباس.

الفوضى. لا أهميّةَ لكونهم متوّجين أم لا، فقد كانت غايتهم ومازالت أن يقفزوا فوق الحضارة وأن يبتلعوها إن لزم الأمر. كانت العمليّة مطبوعة في جبلّتهم بما أنّهم يعانون منذ الأزل من الوسواس نفسه: أن يبسطوا هيمنتهم على أحلامنا وثوراتنا، أن ينشئوا إمبراطوريّة لا تقلّ شساعة عن خيباتنا ومخاوفنا. إنّ أمّة كهذه، مطلوبة فكرًا وفعلاً إلى أقصى الكوكب، لا يُمكن أن تُقاس بمقاييس مألوفة ولا أن تُفَسّر بمفردات عاديّة في لغة مفهومة، بل هي تتطلّب لغة الغنوصيّين إلى جانب لغة المصابين بالشلل العامّ. إنّها دون شكّ كما أكّد لنا ريلكة[1]، متاخمة للإله، لكنّها متاخمة أيضًا لبلادنا، وستتاخم في مستقبل قريب بلادًا أخرى كثيرة، كي لا أقول كلّ البلدان، على الرغم من الإنذارات الواضحة التي توجّهها لي بصيرة ماكرة. ها هي تبلُغُنا حيثما نكون، إن لم يكن جغرافيًّا فباطنيًّا بما لا يدع مجالاً للشكّ. والحقّ أنّي مستعدٌّ أكثر من أيٍّ كان للاعتراف بديونها عليّ: هل كنت أعي جراحي وهل كنت أشعر بواجب الاستسلام لتلك الجراح لولا كُتّابها؟ أما كنُتُ أُبذّر ذُعري وأخسرُ قلقي لولاها ولولا كُتّابها؟ أخشى أنّك لن تستحسن الآن ميلي إلى الحكم عليها بموضوعيّة ولن يروق لك تعبيري لها عن امتناني. سأكتم إذنْ هذه المدائح المعروضة في غير موسمها. سأخنقها فيَّ كي أحكم عليها بالازدهار هناك.

---

(١) ريلكة راينر ماريا (Rainer Maria Rilke) الشاعر النمساويّ (١٨٧٥-١٩٢٦) الذي عُرف بتجربته الوجودية العميقة.

لقد سبق لك، أيّامَ كان يطيب لنا أن نعدّد ما نتّفق عليه وما نختلف فيه، أن لمتني على أنّي أحكم دون تحفّظ على ما أتحمّس له وعلى ما أمقته، وأنّي لا أملك إلاّ مشاعر مزدوجة هي بالضرورة مزيّفة، كنت تردّها إلى عجزي عن الإحساس بعاطفة حقيقيّة، ملحًّا على أنّي كنتُ أجد في ذلك بعض المتعة. لم يكن تشخيصك خاليًا من الدقّة إلاّ في ما يخصّ المتعة. هل تظنّ أحدَنا يستمتع حقًّا بأن يكون عبدًا وضحيّة للشيء ونقيضه، أن يكون منحازًا ومحايدًا، متعصّبًا وباحثًا عن الموضوعيّة؟ ليس هذا ممكنًا دون عذاب، إذ تحتجّ علينا الغرائز ولا نتقدّم إلاّ بالرغم عنها وضدّها نحو الحيرة المُطلقة، ذلك الوضع الذي يكاد لا يختلف عمّا يسمّيه الصوفيّون «آخر درجات الفناء». كي أقف بنفسي على حقيقة رأيي في أتفه الأمور وكي أتّخذ موقفًا لا من شيء مُعيّن بل حتى من اللاشيء، عليّ أن أواجه عاهتي العقليّة الأساسيّة: نزوعي الطبيعيّ إلى تبنّي كلّ القضايا والتفصّي منها في الوقت نفسه، مثل فايروس منتشر في كلّ مكان، متمزّق بين الجوع والتُخمة، كأنّه عنصر خبيث وغير خبيث في وقت واحد، نهِم ومُشبَع، يتردّد أمام البلايا فلا يعرف أيّها يختار وفي أيّها يتخصّص، متنقّلاً من بليّة إلى أخرى بلا تمييز ولا نجاعة مثل مخرّبٍ منقطع النظير، يحمل العضال ويُبدّده، ويخون كلَّ الأمراض، أمراضه وأمراض الآخرين.

لا أتمنّى شيئًا مثل أن لا يكون عليّ أنّ أقف إلى جهةٍ أو أن أتّخذ قرارًا أو أن أبين عن شيء محدّد. لكنّنا لا نسيطر دائمًا على نزواتنا، تلك المواقف الكامنة وتلك النظريّات الجنينيّة. نحن

ميّالون بالفطرة إلى بناء الأنظمة، لذلك نبني منها المزيد دون انقطاع، خاصّة في السياسة، مجال المسائل الزائفة حيث يتمدّد الفيلسوف الرديء الكامن في كلٍّ منّا، ذلك المجال الذي أرغب في الابتعاد عنه لسبب بسيط ولبداهةٍ ترتقي في نظري إلى درجة الكشف: إنّ السياسة لا تدور إلاّ حول الإنسان. لقد قرفتُ من الأحياء وها أنا أجهد عبثًا كي أقرف من الأشياء، منحصرًا قهرًا في المسافة الفاصلة بين كِلَيْهِمَا، أتمرّسُ حتى الانهيار على منازلة ظِلالهما. وهل هي إلاّ ظلالٌ أيضًا، تلك الأُمم التي يشغلني مصيرها، لا بسببها هي بل بسبب الفرصة التي تتيحها لي كي أثأر ممّا ليس له حدّ ولا شكل، كي أنتقم من الجواهر والرموز. إنّ البشر العاطل الولِعَ بالعنف يحافظ على مهارته حين يعتزل في جحيم تجريديّ. وهو حين يُهمل الفرد، يتحرّر من الأسماء والوجوه، ويهاجم الغامض والعامّ، وما أن يوجّه ظمأه للإبادة ناحية ما هو غير ملموس حتى يبدع جنسًا جديدًا: الأهجية الجوفاء.

أنا ذا إذنْ متعلّقٌ بأرباع أفكار وبأضغاث أحلام، وقد وقعتُ في الفكر خطأً أو بسبب هستيريا لا علاقة لها البتّة بالحرص على الدقّة، أبدو لنفسي دخيلاً على المتمدّنين، مثل ساكن كهوف شغوف بكلّ ما هو لاغ، منغمس في صلوات هدّامة، فريسة هلع لا ينبثق عن رؤيةٍ للعالَم بقدر ما يعود إلى تشنّج اللحم وظُلُمات الدم. لقد بتُّ في صممٍ تامّ عن نداءات الأنوار وعن العدوى اللاتينيّة، حتّى أنّي أشعرُ بآسيا تتململ في شراييني. هل أكون سليل أحد الأقوام المشينة، أم بُوقًا لجنسٍ كان في ما مضى

صاخبًا وهو اليوم صامت؟ تغريني في أحيان كثيرة فكرةُ انتحال سلالة أخرى لي، فكرة استبدال أسلافي وانتقائهم من بين من عرفوا في زمانهم كيف ينشرون الحداد بين الأمم، على النقيض من أسلافي، على النقيض من أسلافنا الباهتين المكدومين، المُتخمين بالبؤس، وقد امتزجوا بالوحل وأخذوا يئنّون تحت لعنات القرون. أجل، تنتابني أحيانًا نوبات غرور فأميل إلى الاعتقاد بانّي وريث عصابة ذاع صيتها في السلب والنهب، طورانيٌّ[1] عن رغبة، ابن السُهوب الشرعيّ، آخر المغول...

لا أريد أن أختم دون أن أحذّرك مرّة أخرى من مغبّة الحماسة أو الغيرة اللتين قد يثيرهما فيك «حُسْن حظّي»، وتحديدًا، كوني أستطيع الاسترخاء في مدينة لاشكّ أنّ ذكراها تلازمك على الرغم من تجذّرك في وطننا المُتبخّر. هذه المدينة التي لا أستبدلها بأيّ مدينة في العالم، هي، لهذا السبب تحديدًا، مصدر كلّ مصائبي. لقد أصبح كلّ ما عداها متساويًا في نظري حتى أنّي أتحسّر في كثير من الأحيان على كونها نجت من الحرب ولم تهلك مثل مدن أخرى كثيرة. لو دُمِّرت لخلّصتني من سعادة العيش فيها، ولأمكن لي أن أقضي أيّامي في مكان آخر في أقاصي أيّ قارّة من القارّات. لن أغفر لها أبدًا أنّها ربطتني بالفضاء وأنّي أصبحت بسببها منتميًا إلى مكانٍ مَا. أقول هذا دون

(١) الطورانيّ (Touran): المنتمي إلى الطورانيّين وهي التسمية التي تُطلق على بعض شعوب المنطقة الممتدة من البحر الأبيض المتوسط حتى منغوليا، ويذهب البعض إلى أنّ طورانيا او طوران هي تلك المملكة الأسطوريّة التي ذكرها الفردوسي في الشاهنامة.

أن أنسى أن أربعة أخماس سكّانها، وقد لاحظ ذلك شامفور[1] من قبل، «يموتون غمًّا». وأضيف أيضًا لعلمك، أنّ البقيّة الباقية من أصحاب الامتيازات القلائل وأنا منهم لا يكترثون لذلك، حتى أنّهم يحسدون الأكثريّة الغالبة على الميزة التي تنفرد بها: أنّها تعرف *بماذا* تموت.

باريس ١٩٥٧

(١) شامفور (Chamfort) شاعر وكاتب أخلاقيّ فرنسي (١٧٤٠-١٧٩٤).

روسيا
وفايروس الحريّة

يحدث لي أحيانًا التفكير في أنّ على البلدان كُلّها أن تشبه سويسرا، أن تغتبط وتتبلّد مثلها في النظافة والبرودة وعبادة القوانين وتأليه الإنسان. إلاّ أنّي من ناحية أخرى، لا أشعر بالميل إلاّ إلى الأمم التي لا وازع لها فكرًا وفعلاً، الأمم المتوثّبة النهمة، دائمة الاستعداد لافتراس الآخرين وافتراس نفسها، دائسةً على كلّ القيم التي تقف في طريق صعودها ونجاحها، مستعصيةً على الحكمة، تلك المصيبة التي تجتاح الشعوب القديمة المُرهقة بنفسها وبكلّ شيء حتى لكأنّها مفتتنة بأن تفوح منها رائحة العفن.

كما إنّي أرى أنّ الطغاة، وإن كنتُ أمقتهم، هم الذين يصنعون نسيج التاريخ، ولولاهم ما كان لأحد أن يتصوّر كيف تنشأ ولا كيف تُسيّر إمبراطوريّة. إنّهم بفظاعتهم الفائقة وبهيميّتهم المُلهَمة، لَيُمثّلون الإنسان وقد دُفع إلى حُدوده القصوى، إلى أقصى تجلّيات حقاراته ومزاياه. إيفان الرهيب[1] مثلاً، كي لا

---

(١) إيفان الرهيب (Ivan le Terrible) أو إيفان الرابع (١٥٣٠-١٥٨٤) الذي أعلن نفسه قيصرًا لأول مرة في تاريخ روسيا.

نذكر إلاّ أكثرهم إبهارًا، حالة قادرة على استنفاد علم النفس كلّه لما في جنونه وفي سياسته من تعقيد. لقد صنع من عهده وإلى حدٍّ ما من بلاده نموذجًا للكابوس، مثالاً أوّل للهلوسة الحيّة اللامتناهية، مزيجًا من منغوليا وبيزنطة. لقد اجتمعت لديه مزايا خان[١] وبازيليوس[٢] وعيوبهما معًا، فإذا هو وحشٌ يَحكُمهُ الغضب الجنونيّ والكآبة المخيفة، وتتنازعه رغبتان هما الدم والندم، ويتوّج مرحه الهزء. كان يحبّ الجريمة، والحقّ أنّنا نحبّها جميعًا مهما كنّا، سواء أكانت ضدّ الآخرين أم ضدّنا. إلاّ أنّها تظلّ غير مُشبعة لدينا، وهو ما يجعل كلّ أعمالنا مهما كانت، ناشئة عن عجزنا عن قتل الآخرين أو عن قتل أنفسنا. نحن لا نعترف بذلك دائمًا، بل نفضّل التعامي عن الآليّات العميقة لعاهاتنا. وإذا كان القياصرة أو الأباطرة الرومان يشغلون فكري إلى هذا الحدّ، فلأنّ تلك العاهات المحجوبة لدينا تظهر سافرةً لديهم. إنّهم يكشفون عنّا لأنفسنا ويجسّدون أسرارنا ومن ثمّ يفضحونها. أخصّ بالذكر منهم أكثرهم انحطاطًا، أولئك الذين كانوا يتكالبون على أقرب الناس إليهم، ولا يتوانون مخافةَ أن يحبّهم منهم أحد، عن الإلقاء بهم في أتون العذاب. والحقّ أنّهم كانوا تعساء مهما بلغوا من قوّة، بسبب جوعهم الدائم إلى خوف الآخرين. أليسوا صورةً عن الروح الشرّيرة التي تسكننا والتي

---

(١) الخان: الحاكم أو الملك، وهو لقب الحكام المغول والتتر والصينيّين وغيرهم.

(٢) بازيليوس: الملك. وهو اللقب الذي أطلقه اليونانيّون على أباطرة بيزنطة وروما.

تحاول إقناعنا بأن لا شيء أفضل من أن نعمّم الفراغ من حولنا؟ بمثل هذه الأفكار وبمثل هذه الغرائز تنشأ الإمبراطوريّات، يدعمها وعينا الباطن حيث تختفي نقائصنا الأغلى.

تنبثق الرغبة في السيطرة على العالم من دفع بدئيّ ومن أعماق تكاد لا تبين. وهي لا تظهر إلاّ لدى أفراد معيّنين وفي عصور معيّنة، دون ارتباط بنوعيّة الأمّة التي تظهر فيها: فالاختلاف بين نابليون[١] وجنكيزخان[٢] أقلّ من الاختلاف بين الأوّل وأيّ سياسيّ من ساسة الجمهوريّات المتعاقبة. إلاّ أن هذه الأعماق وذلك الدفع قابلان للنضوب والإنهاك.

شارلمان[٣]، فريديريك الثاني[٤]، شارلكان[٥]، هتلر[٦]،

---

(١) نابليون بونابرت: (١٧٦٩-١٨٢١) القائد العسكري ثم الإمبراطور الفرنسي الذي قارنه البعض بالإسكندر وحنبعل.

(٢) جنكيزخان: (ما بين ١١٦٥ و١٢٢٧ تقريبا) القائد الذي وحّد قبائل المغول و أنشأ الإمبراطورية المغولية غازيًا معظم آسيا حتى الصين وروسيا وفارس والشرق الأوسط وشرق أوروبا.

(٣) شارلمان (٧٤٢-٨١٤): الإمبراطور الشهير الذي أدخل الكثير من الإصلاحات المؤثّرة واعتبرته الكنيسة أول إمبارطور روماني مقدّس.

(٤) فريدريك الثاني دي هوهنشتاوفن (١١٩٤-١٢٥٠): إمبراطور الرومانية المقدسة من آل هوهنشتاوفن. تميز عهده بالصراع مع البابوية. قاد الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩) وتوج نفسه ملكا على القدس عام ١٢٢٩.

(٥) شارلكان (Charles Quint): أو شارل الخامس دي هاسبورغ (١٥٠٠-١٥٥٨) ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطوريّة الرومانية المقدسة الذي يعتبره الكثيرون أحد رموز التاريخ الأوروبي.

(٦) هتلر: (١٨٨٩ - ١٩٤٥) القائد الألماني النازي. تأثر سيوران بفكره في شبابه ثم اعتذر عن ذلك.

راودتهم الرغبة كلٌّ على طريقته في تجسيد فكرةِ إمبراطوريّة كونيّة، ونجحوا جميعًا في الفشل كلٌّ على طريقته. وها هو الغرب، الذي لم تعد هذه الفكرة تثير فيه غير السخرية أو الحرج، يعيش اليوم خجِلاً من فتوحاته. لكنّ الغريب أنّ لحظة انطوائه على نفسه هي تحديدًا لحظة انتصار شعاراته وانتشارها، هذه الشعارات التي تجد لها صدى خارج حدوده إذ تُوجَّه ضدّ سلطته وضدّ تفوّقه، فإذا هو لا يربح إلاّ حين يخسر نفسه. هكذا لم تؤل الغلبة إلى بلاد اليونان على صعيد العقل إلاّ حين كفّت عن أن تكون قوّة بل ربّما حين كفّت حتى عن أن تكون أمّة. عندئذ تمّ نهب فلسفتها وفنونها، وتمّ إحياء نتاجها في غياب القدرة على تمثُّل مواهبها. ينطبق الأمر نفسه على الغرب، فقد سُلب وسيُسلب من كلّ شيء إلاّ من عبقريّته. إنّ الحضارة لا تكشف عن خصوبتها إلاّ من خلال قدرتها على دفع الحضارات الأخرى إلى تقليدها، وما أن تفقد قدرتها على الإبهار حتى تُختزل في حصيلة من الشظايا والأطلال.

هجرت فكرةُ الإمبراطوريّة هذا الركن من العالم، وكان مُقدّرًا لها أن تجد مناخًا ملائمًا في روسيا حيث كانت دائمًا موجودة والحقُّ يُقال، خاصّة من الناحية الذهنيّة. بعد سقوط بيزنطة رسخت موسكو في الوعي الأرثودوكسيّ بوصفها روما الثالثة وريثة المسيحيّة «الحقيقيّة» والإيمان الصحيح. كانت تلك أولى اليقظات المسيحيّة. وكان لابدّ لها من انتظار أيّامنا هذه كي تشهد يقظتها الثانية، إلاّ أنّها مدينة بهذه اليقظة هذه المرّة إلى استقالة الغرب. لقد استفادت من فراغ دينيّ في القرن الخامس

عشر، مثلما هي تستفيد من فراغ سياسيّ في أيّامنا هذه. فرصتان أساسيّتان أمامنا كي نقتنع أكثر بمسؤوليّاتها التاريخيّة.

حين شرع محمد الفاتح[1] في حصار القسطنطينيّة كانت المسيحيّة منقسمة كعادتها، وكانت إضافة إلى ذلك سعيدة بنسيانها ذكريات الحروب الصليبيّة، لذلك امتنعت عن التدخّل. اغتاظ المُحاصَرون لذلك في البداية، ومع تأكّد الكارثة، تحوّل اغتياظهم إلى ذهول. كان البابا متأرجحًا بين الهلع والشماتة المخفيّة، فوعدهم بالنجدة لكنّه أرسلها بعد فوات الأوان. ولم العجلة في نجدة «منشقّين»؟ والحقّ أنّ الانشقاق كان يتهيّأ إلى الانتشار بقوّة أكبر في مكان آخر. هل فضّلت روما موسكو على بيزنطة؟ نحن نحبّ دائمًا العدوّ البعيد بشكل أفضل من العدوّ القريب. وهو ما يصحّ في أوروبّا في أيّامنا هذه، حيث ليس مُستبعدًا أن يفضّل الأنجلوساكسون تفوّق روسيا على تفوّق ألمانيا، فألمانيا قريبة *أكثر من اللازم*.

إنّ مطامع روسيا في الانتقال من الأسبقيّة المبهمة إلى الهيمنة الواضحة ليست مبنيّة على فراغ. ماذا كان يحلّ بالعالم الغربيّ لو أنّ روسيا لم توقف ولم تمتصّ الغزو المغوليّ؟ لقد ظلّت خارج التاريخ طيلة قرنين من المهانة والعبوديّة، بينما أمم الغرب تسمح لنفسها بترف أن ينهش بعضها بعضًا. لو أتيح

---

(١) محمد الفاتح أو محمد الثاني (١٤٣٢-١٤٨١): السلطان العثماني السابع في سلسلة آل عثمان، يُلقّب أيضا بأبي الخيرات. حكم حوالي ثلاثين عاماً عرفت الخلافة الإسلامية أثناءها توسعا كبيرا.

لروسيا أن تتطوّر دون معوقات لأمكن لها أن تصبح قوّة عظمى منذ بداية العصور الحديثة، ولبلغت ما بلغته الآن منذ القرن السادس عشر أو السابع عشر. والغرب؟ لو حدث ذلك لظلّ حتى اليوم أرثودوكسيًّا ولاحتضنت روما المجلس الأعلى عوضًا عن الكرسيّ الرسولي. إلاّ أنّ في وسع الروس تدارك ما فاتهم، فلو تأكّد ما تنبئ به الأحداث وأُتيح لهم أن ينفّذوا خططهم على أكمل وجه، لما بات مستبعدًا أن يقضوا على الحَبْر الأعظم. إنّهم مدعوّون إلى تدمير سلطة الكنيسة ومجدها سواء باسم الماركسيّة أو باسم الأرثودوكسيّة، فللكنيسة أهداف لا يمكنهم التغاضي عنها دون التخلّي عن أهمّ نقطة في مهمّتهم وفي برنامجهم. في عهد القيصر كانوا يعتبرونها أداة من أدوات المسيح الدجّال وكانوا يصلّون ضدّها. أمّا اليوم وقد باتت تمثّل عميلاً لشيطان الرجعية، فإنّهم يوسعونها شتائم أكثر نجاعةً من لعناتهم القديمة. وقريبًا يجتاحونها بكلّ ثقلهم، وبكلّ ما يملكون من قوّة. وليس مستحيلاً بالمرّة أن يعدّ قرننا من بين غرائبه، وفي شكل قيامة عابثة، انقراض آخر خلفاء القديس بطرس.

حين قامت الماركسيّة بتأليه التاريخ للحطّ من مكانة الإله، فهي لم تفعل غير جعل الإله أكثر جاذبيّةً واستحواذًا على النفوس. من الممكن كبتُ كلّ شيء في الإنسان باستثناء حاجته إلى المُطلق، وهي حاجةٌ لا تنهار بانهيار المعابد، بل هي قادرة على البقاء حتى بعد اندثار الأديان من على وجه الأرض. ولمّا كان الدين في قرارة الشعب الروسيّ، فإنّ الغلبة ستكون له لا

محالة. ثمّة أسباب تاريخيّة ستساهم في ذلك بدرجة كبيرة.

بتبنّيها للأرثوذوكسيّة عبرّت روسيا عن رغبتها في الانفصال عن الغرب. كانت تلك طريقتها لإثبات ذاتها منذ البداية. ولم يحدث لها البتّة خارج الأوساط الأرستقراطية أن استسلمت إلى غواية المبشّرين الكاثوليك، متمثّلين هنا في اليسوعيّين. لا يعبّر الانشقاق عن اختلاف مذهبيّ بقدر ما يعبّر عن إرادة إثبات الذات إثنيًّا، وهو إلى ردّ الفعل القوميّ أقرب منه إلى المجادلة النظريّة. لم يحدث الانقسام الكنسيّ بسبب مسألة «الطبيعتين» التافهة[1]. طالبت بيزنطة باستقلالها التامّ وكذلك فعلت موسكو لأسباب أقوى، ولم يكن الانشقاق والهرطقة سوى صراع قوميّات متنكّر. لكنّ الإصلاح اتّخذ هيئة خلاف عائليّ أو فضيحة داخل الغرب، بينما كانت الخصوصيّة الأرثودوكسيّة التي طالت العمق تتّجه نحو تأكيد الانفصال عن الغرب نفسه. برفضها الكاثوليكيّة أعاقت روسيا تطوّرها وخسرت فرصة أساسيّة للتحضّر بسرعة، لكنها كسبت في الوقت نفسه مزيدًا من الكثافة والوحدة. كان من شأن ركودها أن يجعلها *مختلفة*، *مغايرة*، وهو ما كانت تطمح إليه، متوقّعة دون شكّ أنّ الغرب سيندم ذات يوم على ما تقدّم به عليها.

---

(١) مسألة الطبيعتين (Question du filioque): الخصومة التي انقسمت على إثرها الكنيسة المسيحية إلى كنيستين: كنيسة تؤمن بأنّ المسيح بعد تجسّده كانت له طبيعتان ومشيئتان لاهوتية وناسوتية، وكنيسة تؤمن بأنّ طبيعة المسيح واحدة يتّحد فيها اللاهوت والناسوت بغير اختلاط ولا امتزاج ولا تغيير.

سيكون من شأن روسيا كلّما ازدادت قوّة أن تزداد وعيًا بجذورها، تلك التي سعت الماركسيّة بشكلٍ مَا إلى إبعادها عنها. وبعد جولة قسريّة من الكونيّة ستتروّسُ[1] لفائدة الأرثودوكسيّة. إلاّ أنّها قد تكون من ناحية أخرى قد وسمت الماركسيّة بميسمها حدّ تحويلها إلى سلافيّة. كلّ شعب مهما كان حجمه، ما أن يتبنّى إيديولوجيا غريبة عن تقاليده، حتى يهضمها ويغيّر طبيعتها ويميل بها في اتّجاه مصيره القوميّ، ويزوّرها لفائدته إلى أن يجعلها لا تختلف في شيء عن عبقريّته الخاصّة. إنّه يمتلك رؤية خاصّة به هي بالضرورة مُشَوِّهة، وينطلق من خطأ بصريّ لا يزعجه بقدر ما يرضي غروره ويحفّزه. وقد تكون الحقائق التي يتمسّك بها خاليةً من القيمة الموضوعيّة، لكنّ ذلك لا يمنعها من أن تكون حيّة وأن تنتج من ثمّ ذلك النوع من الأخطاء الذي يصنع تنوّع المشهد التاريخيّ. عِلْمًا بأنّ على المؤرّخ الشكّاك بحُكْمِ المهنة والطبع والخيار، أن يقف منذ البداية خارج الحقيقة.

بينما كانت الشعوب الغربيّة تنهك نفسها في صراعها من أجل الحريّة، وتنهك نفسها أكثر في الحريّة المُكتسبة (فلا شيء ينهك أكثر من امتلاك الحريّة والإفراط فيها)، كان الشعب الروسيّ يتألّم دون أن يُجهد نفسه، إذ لا شيء يستحقّ إجهاد النفس غير التاريخ. ولمّا كان قد أُطرد من التاريخ فقد توجّب عليه أن يتحمّل أنظمة الاستبداد الصارمة التي مُنِيَ بها. كان

---

(١) ستتروّس: ستصبح روسيّة.

وجوده خاملاً نباتيًّا، لكنّه سمح له بتقوية عوده وتنمية طاقته ومراكمة مُدّخراته والخروج من عبوديّته بأقصى ما يمكن من المكاسب البيولوجيّة. وقد ساعدته الأرثوذوكسيّة على ذلك. ونعني الأرثوذوكسيّة الشعبيّة التي أفلح بناؤها المثير للإعجاب في إبقائه خارج الأحداث، على العكس من الأرثوذوكسيّة الرسميّة التي كانت توجّه السلطة ناحية أهداف أمبرياليّة. كانت الكنيسة الأرثوذوكسيّة ذات وجهين: فقد حرصت من ناحية على تخدير الجموع، بينما وضعت نفسها من الناحية الأخرى في خدمة القياصرة، محفّزةً طموحاتهم متيحة لهم فتوحات هائلة باسم شعب مستكين. استكانة محمودة بما أنّها أمّنت للروس تفوّقهم الراهن، ثمرة تخلّفهم التاريخيّ. أيًّا كانت مشاريع أوروبّا وسواء أكانت هذه المشاريع لفائدتهم أم ضدّ مصلحتهم فهي لا تدور إلاّ حولهم. وهي إذ تضعهم في المركز من دائرة اهتمامها أو من دائرة مخاوفها فإنّها تقرّ لهم بالغلبة الافتراضيّة. هو ذا أحد أقدم أحلامهم وقد بات شبه متحقّق. وأن يتمّ لهم ذلك عن طريق إيديولوجيا ذات مصدر خارجيّ، لهو أمرٌ يضفي قدرًا من المفارقة ومسحة من الطرافة على نجاحهم. المهمّ في النهاية أنّ النظام روسيّ، وأنّه راسخ تمامًا في تقاليد البلاد. أليس من الأمور الدالّة أن تكون الثورة المنحدرة رأسًا من نظريّات غربيّة، قد اتّجهت أكثر فأكثر ناحية أفكار مُحبّي السلاف. إنّ الشعب على أيّ حال لا يمثّل مجموعة أفكار ونظريّات بقدر ما يمثّل مجموعة هواجس متسلّطة. وهواجس الروس أيًّا كان موقعهم هي دائمًا متماثلة أو على الأقلّ متقاربة. لم يجد شخص مثل

تشاداييف[1] أيّ مكرمة لأمّته ولم يفوّت شخصٌ مثل غوغول[2] فرصة للسخرية منها دون شفقة، لكنّهما لم يكونا أقلّ تعلّقًا بها من دوستوييفسكي[3]. أمّا أشرسُ العدميّين نيتشاييف[4] فقد كان مهووسًا بها تمامًا مثل بوبييدونوستسيف[5] وكيل المجلس الأعلى. هذا الهوس وحده مهمّ أمّا الباقي فليس سوى مظهر.

كي تتأقلم روسيا مع نظام ليبراليّ لابدّ لها من أن تضيّع قوّتها وأن تفقد حيويّتها، وأكثر من ذلك، أن تخسر سمتها المميّزة وأن تنسلخ من قوميّتها في العمق. وأنّى لها أن تفلح في ذلك بالنظر إلى مدّخراتها الباطنيّة الكاملة وأعوامها الألف من الحكم الفرديّ. ولو نجحت في ذلك افتراضًا عن طريق قفزة مفاجئة، لتناثرت أشلاء على الفور. أمم كثيرة تحتاج كي تحافظ

---

(١) تشادابيف (Tchaadaev) بيوتر، الكاتب والفيلسوف الروسي (١٧٩٤-١٨٥٦) الذي عُرف بأحكامه القاسية على التاريخ والثقافة الروسيّين.

(٢) غوغول (Gogol): الكاتب الروسي ذو الأصول الاوكرانية (١٨٠٩-١٨٥٢)، وأحد آباء القصة في العالم. من أعماله المعطف، والمفتّش العامّ، إلخ...

(٣) دوستوييفسكي (Dostoïevski): أحد اكبر كتاب روسيا والعالم (١٨٢١-١٨٨١)، من أعماله: الجريمة والعقاب، الإخوة كرامازوف، الشياطين إلخ...

(٤) نيتشاييف (Netchaiev): الثوريّ العدميّ الروسيّ(١٨٤٧-١٨٨٢). من آثاره مُؤَلّف بعنوان كتاب الثوريّ، يذهب الكثيرون إلى مساهمة باخونين في تحريره.

(٥) بوبييدونستسيف (Constantin Pobiedonostsev): ويعني اسمه المنتصر، رجل قانون ورجل دولة ومفكر روسي (١٨٢٧-١٩٠٧): أحد رموز المحافظين الروس والعقل المدبّر للقيصر الإسكندر الثالث.

على نفسها وتزدهر إلى جرعة من الرعب. فرنسا نفسها لم تستطع الذهاب في اتّجاه الديموقراطيّة إلاّ حين ترهّلت ولم يعد لها أمل في الهيمنة فأخذت تستعدّ إلى أن تصبح محترمة حكيمة. كانت الإمبراطوريّة الأولى جنونها الأخير. انفتحت بعد ذلك على الحريّة وتوجّب عليها أن تعتادها بصعوبة عبر انتفاضات عديدة، على النقيض من انكلترا تلك الحالة المدوّخة، التي تعوّدت على الحريّة بطول المدّة ودون صدمات ولا مخاطر، بفضل سُكّانها المحافظين الأغبياء (لم تنجب إلى حدّ علمي فوضويًّا واحدًا).

يعمل الزمن بطول المدّة لفائدة الأمم الراسفة في الأغلال، التي تجمّعُ القوى والأوهام وتعيش في المُستقبل والأمل. لكن ما الذي يمكنُ تأمّلُه بعدُ في الحريّة؟ أو في النظام الذي يجسّدها والمُقام على الإسراف والطمأنينة والارتخاء؟ إنّ الديموقراطيّة أعجوبة لم يعد لديها شيء تعطيه، وهي من ثمّ جنّة الشعب وقبره معًا. لا معنى للحياة إلاّ بها لكنّها تفتقر إلى الحياة. سعادة فوريّة وكارثة وشيكة، تلك هشاشة نظام لا نؤمن به إلاّ وقعنا في مأزق مُعذِّب.

إنّ روسيا المحصّنة والمحظوظة ليس عليها أن تواجه مثل هذه المشاكل، فالسلطة المُطلقة، مثلما لاحظ كارامزين[١] من قبل، «أساس كيانها». أليس التطلّع الدائم إلى الحريّة دون بلوغها

(١) كارامزين (Nikolaï Karamzine): كاتب ومؤرّخ روسيّ (١٧٦٦-١٨٢٦). اشتهر بكتابه تاريخ روسيا العامّ، وعمل مستشارًا للإسكندر الأول.

أبدًا، علامة تفوّقها الكبير على العالم الغربيّ، الذي تمكّن للأسف، من الوصول إليها منذ زمن طويل؟ ثمّ إنّها ليست خجِلةً بإمبراطوريّتها، بل هي على العكس من ذلك لا تفكّر إلاّ في توسيعها. ومن كان أسرع منها إلى الاستفادة من مكتسبات الشعوب الأخرى؟ ما أنجزه بطرس الأكبر[1]، بل حتى ما أنجزته الثورة، ليس سوى تعبير عن *طفيليّتها* العبقريّة. لقد أفلحت في تحمّل كلّ شيء بنبوغ، حتى فظاعات النير التتريّ.

وإذا كانت قد عرفت كيف تقلّد الغرب على الرغم من اعتكافها داخل عزلتها المحسوبة، فقد عرفت أيضًا بشكل أفضل كيف تثير إعجاب الغرب وكيف تغوي عقوله. هكذا افتتن الموسوعيّون بما أنجزه بطرس وكاثرين[2]، تمامًا كما سيكون على ورثة قرن الأنوار، أقصد اليساريّين، أن يفتتنوا بمنجزات لينين[3] وستالين[4]. هذه الظاهرة تشفع للروس لكنّها لا تشفع

---

(١) بطرس الأكبر (Pierre le Grand) بيتر العظيم أو بيتر الأول أو بيوتر ألكسييفيتش رومانوف: (١٦٧٢-١٧٢٥) القيصر الروسي الذي حوّل روسيا من قيصريّة إلى إمبراطوريّة ونصب نفسه أوّل أباطرتها.

(٢) كاثرين (Marthe Skavronskaïa, dite: Catherine Ire) أو كاثرين الأولى (١٦٨٤-١٧٢٧) زوجة بطرس الأكبر وخليفته حتى وفاتها.

(٣) لينين (Vladimir Ilitch Oulianov, dit: LENINE): المفكّر والسياسي الروسي (١٨٧٠-١٩٢٤)، قائد الحزب البلشفيّ والثورة البلشفيّة، ومؤسّس الماركسية اللينينيّة.

(٤) ستالين (Joseph Staline): القائد الثاني للاتحاد السوفييتي (١٨٧٨-١٩٥٣) الذي انتقلت في عهده روسيا من مجتمع فلاحي إلى مجتمع صناعي وعُرف ببطشه الشديد.

للغربيّين، الذين بلغ بهم التعقيد والدمار كلّ مبلغ، واختاروا البحث عن «التقدّم» في مكان آخر، خارج ذواتهم وإبداعاتهم، حتى أصبحوا اليوم ويا للمفارقة أقرب إلى شخصيّات دوستوييفسكي من الروس أنفسهم. وإن كان من اللائق أن نضيف أنّهم لا يذكّرون إلاّ بالجوانب المخلّة في تلك الشخصيّات، وأنّهم لا يملكون ما تملكه من نزوات شرسة وعناد رجوليّ: فهم ليسوا سوى «ممسوسين» حمقى لفرط المماحكة والتردّد، فريسة حسرات لا تبين وأسئلة لا تُعدّ، ضحايا الشكّ، تبهرهم حيرتهم وتقضي عليهم.

ليس من حضارة إلاّ وهي تؤمن بأنّ طريقتها في الحياة هي الوحيدة الصالحة الوحيدة الممكنة، وأنّ عليها أن تُقنع بها العالم أو أن تفرضها عليه. وهو ما يعادل بالنسبة إليها نظريّةَ خلاصٍ معلنة أو مقنّعة، هي في الواقع أمبرياليّة أنيقة سرعان ما تفقد أناقتها حين تصحبها المغامرة العسكريّة. لا يمكن تأسيس إمبراطوريّة انطلاقًا من نزوة. علينا أوّلاً أن نرغم الآخرين على تقليدنا، على الدخول في قالبنا وفي قالب معتقداتنا وعاداتنا. تأتي بعد ذلك الحتميّةُ الفاسدة، أن نصنع منهم عبيدًا كي تنعكس عليهم الخطوط الأولى المُجمّلة أو الكاريكاتوريّة لذاتنا. لا أنكر وجود هرميّة كيفيّة للإمبراطوريّات، فالمغول والرومان لم يُطوّعوا الشعوب لنفس الأسباب ولم يكن لفتوحاتهم نفس النتائج، لكنّ هذا لا يمنع أنّهم كانوا على نفس الدرجة من الخبرة في إهلاك الخصم عن طريق اختزاله في صورتهم.

لم تكتف روسيا مطلقًا بالمصائب التافهة سواء تلك التي تسبّبت فيها أم تلك التي هبطت عليها. وسيكون ذلك شأنها في المستقبل. ستنبطح على أوروبّا بحُكم حتميّة فيزيائيّة، بحُكم الدفع الذاتيّ لكُتلتها، بحُكم فائض حيويّتها المرَضيّة التي كثيرًا ما تناسبُ ولادة إمبراطوريّة (يتجسّد من خلالها دائمًا جنون العظمة الذي يطبع أمّة من الأُمم)، بحُكم تلك العافية التي هي عافيتها، المُترعة بما هو غير متوقّع، بالفظاعة والألغاز، المنذورة إلى خدمة فكرة رسوليّة ليست في الحقيقة سوى أصلٍ وتصوّرٍ مسبق للفتوحات. حين كان محبوّ السلاف[1] يؤكّدون أنّ عليها *إنقاذ العالم*، كانوا في الحقيقة يقولون نصف الحقيقة: إذ لا يمكن إنقاذ العالم دون السيطرة عليه. أمّا في ما يخصّ الأمّة فإنّها لا تجد شرط حياتها إلاّ في نفسها وليس في مكان آخر: فكيف يمكن لغيرها أن يُنقذها؟ تعتقد روسيا دائمًا، مُعلِنَةً لغة محبّي السلاف ورؤيتَهم، أنّ من حقّها تأمين وضع العالم والغرب في المقام الأوّل. الغرب الذي لم تحمل تجاهه في النهاية شعورًا مُحدّدًا، بقدر ما تنازَعَها تجاهه الميل والنفور، وغيرة (هي مزيج من العبادة السريّة والكراهية الاستعراضيّة) نابعة من مشهد العفَن، المرغوب فيه على قدر خطورته، والذي يغري بالاحتكاك به لكنّه يغري أكثر بالهرب منه.

يكره الروسيّ أن يعرّف نفسه وأن يلزم حدوده، ولا يُعنَى إلاّ

(١) محبُو السلاف (Slavophiles) تيّار قوميّ فاعل في روسيا قوامُه التعصّب للعرق السلافيّ.

بما هو ملتبسٌ في السياسة والأخلاق، والأخطر من ذلك أنّه لا يُعنَى إلاّ بما هو ملتبسٌ في الجغرافيا أيضًا، دون أيٍّ من تلك السذاجات المتأصّلة في «المتحضّرين» الذين أعمتهم عن الواقع جرعاتهم المفرطة من التراث العقلانيّ. الروسيّ ذكيّ بالفطرة بقدر ما هو ذكيّ بفضل خبرته العريقة في النفاق. وهو قد يكون طفلاً من الناحية التاريخيّة، لكن من المستحيل أن يكون كذلك من الناحية السايكولوجيّة. من ثمّ تعقيدهُ كرجل ذي غرائز شابّة وأسرار هرمة، ومن ثمّ أيضًا التناقضات الغريبة التي تطبع تصرّفاته. ما أن يعنّ له أن يصبح عميقًا (وهو ما ينجح فيه دون جهد) حتى يشرع في تشويه أتفه الأمور وأبسط الأفكار. لكأنّه مُصابٌ بعادة التكشير الذي لا حدّ له. كلّ ما في تاريخ أفكاره الثوريّة أو غيرها مدوّخ مرعب منفلت. وهو إلى ذلك من هواة اليوتوبيا الذين لا يرعوون. بَيْدَ أنّ اليوتوبيا هي الغريب الذي يحلو في العين، تلك الحاجة إلى ربط السعادة، أي ما هو مُستبعد، بما هو في وضع صيرورة، ودفع الرؤية التفاؤليّة الهوائيّة إلى حيث تلتحق بنقطة انطلاقها: الكلَبيّة التي أرادت محاربتها. إنّها في المحصّلة روعةٌ بشعة.

أن يكون في وسع روسيا تحقيق حلمها بإمبراطوريّة كونيّة، فتلك إمكانيّة وليست يقينًا. لكن من الواضح أنّها تستطيع أن تغزو وأن تضمّ كامل أوروبّا، بل من المؤكّد أنّها ستقوم بذلك، ولو بهدف طمأنة بقيّة العالم: كونها ترضى بهذا القليل! أين يجد دليلاً أكثر إقناعًا على تواضعها واعتدالها؟ إنّها تكتفي بقضمة من قارّة! في انتظار ذلك ها هي تتأمّله مثلما كان المغول يتأمّلون

الصين ومثلما كان الأتراك يتأمّلون بيزنطة، مع فارق أنّها تمثّلت الكثير من القِيَم الغربيّة، بينما لم يكن للتتر والعثمانيّين حيال فرائسهم القادمة إلاّ بعض التفوّق الماديّ. من المؤسف دون شكّ أن لا تكون روسيا قد مرّت بالنهضة، ومن ثمّ افتقارها إلى الانتظام والمساواة. لكنّ موهبتها في حرق المراحل ستتيح لها في خلال قرن وربّما في أقلّ من ذلك، أن تبلغ من التمدّن والهشاشة ما بلغهُ اليوم هذا الغرب، الذي ارتقى إلى مُستوًى من الحضارة لا يمكن تجاوزه إلاّ *بالهبوط*. ليس للتاريخ مطمح أكبر من تسجيل ما يشهده هذا المستوى من تقلّبات. وإذا كانت روسيا اليوم أقلّ درجةً من أوروبّا فهذا يعني أنّ مستواها لا يمكن إلاّ أن يرتفع ويرفعها معه. لنقل إنّها مجبرة على *الصعود*. ولكن ألا يمكن، بسبب ما تبذله من جهد في الصعود وبسبب طبيعتها الجامحة، أن تتعرّض إلى خطر فقدان التوازن فتنفجر وتنهار؟ إنّها بأرواحها المجبولة بالطوائف والسهوب لَتُعطي الملاحظَ انطباعًا غريبًا بالرحابة والانغلاق، بالشساعة والاختناق، بالشمال أخيرًا، لكنّه شمالٌ خاصٌّ عصيٌّ على التحليل، موسوم بسُبات وأمل ترتعد لهما الفرائص، بِليْلٍ مُترع بالانفجارات وبفجرٍ لن يُمحى من الذاكرة. لا وجود لشيء من الشفافيّة والمجانيّة المتوسّطيّتين لدى هؤلاء الشماليّين المتطرّفين، الذين يبدو ماضيهم كحاضرهم منتميًا إلى ديمومة مختلفة عن ديمومتنا. إنّهم يشعرون بحرج أمام هشاشة الغرب وصيته. حرج ناتج عن يقظتهم المتأخّرة وعن حيويّتهم غير المُستعملة: تلك عُقدة ضُعف *القويّ*... التي سينجون منها ويتجاوزونها. نقطة الضوء الوحيدة في مستقبلنا هي

حنينهم الخفيّ والمنقبض إلى عالم مُرهف، ذي مفاتن هدّامة. لو تمكّنوا من الوصول إليه (والظاهر أنّها وجهة مصيرهم البديهيّة)، إذنْ لتحضّروا على حساب غرائزهم، ومن ثمّ ويا لها من إمكانيّة مُبهجة، لتعرّضوا مثلنا إلى فايروس الحريّة.

كلّما تَأَنْسَنَتْ الإمبراطوريّة تناسلت داخلها التناقضات التي تتسبّب في هلاكها. إنّها ذات هيئة مُركّبة وبنية غير متجانسة (على النقيض من الأمّة، تلك الحقيقة العضويّة)، وهي في حاجة إلى الرعب كمبدأ تماسُكيّ لتأمين بقائها. ما أن تنفتح على التسامح حتّى يدمّر وحدتها وقوّتها ويفعل فيها فعل سُمٍّ زعافٍ تكون قد جرّعته لنفسها. وذلك لأنّ التسامح ليس فحسب مرادفًا للحريّة، بل هو مرادف للروح أيضًا، والروح أشدّ وبالاً على الإمبراطوريّات منها على الأفراد، فهي تقرُضُها وتهدّد صلابتها وتعجّل بتآكلها. بل لعلّها تحديدًا الأداةُ التي تضربها بها عنايةٌ إلهيّةٌ ساخرة.

لو عنّ لأحدهم على الرغم من اعتباطيّة المحاولة أن يرسم خارطة *لمناطق الحيويّة* في أوروبّا، لأتيح له أن يلاحظ أنّ الغريزة تبرز كلّما اتّجهنا شرقًا وتضمحلّ كلّما اتّجهنا ناحية الغرب. والروسُ أبعد من أن يحتكروها، على الرغم من أنّ الأمم التي تمتلكها تنتمي هي أيضًا بدرجات مختلفة إلى دائرة التأثير السوفييتيّة. لم تقل هذه الأمم كلمتها الأخيرة. وقد سبقَ لبعضها مثل بولونيا وهنغاريا أن يلعب في التاريخ دورًا لا يُستهان به. أمّا بعضها الآخر مثل يوغسلافيا وبلغاريا ورومانيا فقد عاش في الظلّ ولم يعرف غير انتفاضات عابرة. لكن مهما كان ماضي هذه الأمم

وبمعزل عن مستوى تحضّرها، فهي ما زالت تمتلك ذخيرة بيولوجيّة من العبث البحث عن مثيل لها في الغرب. لقد عُومِلت بقسوة، وحُرِمت من كلّ شيء، وأُردِيت في عذاب عديم الذكر، وقُطّعت أوصالُها بين الحيرة والعصيان، لكنّها قد تظفر في المستقبل بتعويضٍ عن كلّ ذلك القدر من المحن والإذلال وحتى الجبن. إنّ درجة الغريزة لا تقاس من الخارج، ومن غير الممكن تقييم حدّتها إلاّ إذا مارسناها أو حدسنا بأراضيها، تلك الأراضي الوحيدة في العالم التي مازال عماها الرائع يغريها بالمراهنة على مصائر الغرب. لنتخيّل الآن قارّتنا وقد أُدمجت في الإمبراطوريّة الروسيّة، ثمّ لنتخيّل هذه الإمبراطوريّة بحجمها المفرط وقد أخذت تضعف وتتفكّك، مع ما يتبع ذلك من تحرّر الشعوب: تُرَى أيّ تلك الشعوب ستؤول إليه الغلبة وسيمنح أوروبّا ذلك القدر الإضافيّ من اللهفة والقوّة الذي لا مجال بدونه لتلافي الخدر العضال الذي يتربّص بها؟ لا شكّ عندي أنّها الشعوب التي كنتُ بصدد ذكرها. سيبدو زعمي مضحكًا في ضوء السمعة التي تتمتّع بها. وقد يُقال لي دعنا من أوروبّا الوسطى ولكن ماذا عن البلقان؟ لا أريد الدفاع عن شعوب البلقان إلاّ أنّي لا أريد أيضًا أن أصمت عن مزاياهم. ذلك الشغف بالتدمير وبالفوضى الباطنيّة وبِكَوْنٍ شبيهٍ بماخورٍ ملتهب، تلك النظرة المستهزئة إلى البلايا الحالّة أو الوشيكة، تلك الحدّة، تلك العطالة المميّزة للقاتل أو للمُصاب بالأرق. هل يمكن الاستخفاف بإرثٍ بمثل هذا الثقل وهذا الغنى؟ هل يمكن الاستخفاف بمثل هذه الوصيّة التي يستفيد منها ورَثَته؟ أولئك الذين تُنفخ فيهم «الروح»،

فيبرهنون بذلك تحديدًا على أنّهم يحتفظون ببقيّة باقية من الوحشيّة. إنّهم يتمنّون أن يتمرّغوا في المجد، ذاك الذي لا تنفصل شهيّتُهُ عن إرادة تأكيد الذات وتغييبها، كما لا تنفصل الرغبة فيه عن الرغبة في غروب سريع. وإذا كانت كلماتهم لاذعة ونبرتهم غير إنسانيّة وأحيانًا دنيئة، فلأنّ لديهم ألف سبب يدفعهم إلى الصراخ أعلى من هؤلاء المتحضّرين الذين استنفدوا صرخاتهم. إنّهم الآن «البدائيّون» الوحيدون في أوروبّا وربّما استطاعوا منحها دفعًا جديدًا، وهو ما لن تحجم عن اعتباره مهانتها الأخيرة. ولكن إذا لم يكن في الجنوب الشرقيّ غير البشاعة، فلماذا لم نغادره ولم نتّجه إلى هذه الناحية من العالم إلاّ شعرنا بشيء يُشبه السقوط ـ الرائع والحقّ يُقال ـ في الفراغ.

الحياة في العمق، الكينونة السريّة، كينونة الشعوب التي حظيت بأن تظلّ حتى الآن ملفوظةً خارج التاريخ، حيث أمكن لها أن تحوّل أحلامها إلى رأسمال، هذا الوجود المطمور المنذور إلى مصيبة الانبعاث، لم يبدأ من فيينا، الحدّ الجغرافيّ للانهيار الغربيّ. كانت النمسا (القريبة في تآكلها ممّا هو رمزٌ وما هو مثيرٌ للسخرية) صورةً أوليّة عن مصير ألمانيا. لم يبق أيّ ضلالٍ ذي شأن لدى الجرمانيّين، لا أثر لرسالة أو جموح، لا شيء ممّا يجعلهم في نظرنا جذّابين أو بشعين. اختيروا منذ الأزل للهمجيّة فدمّروا الإمبراطوريّة الرومانيّة كي يتيحوا لأوروبّا أن تولد، وما أن بنوها حتى حقّ لهم أن يقوّضوها، وكان عليها أن تترنّح معهم وأن تعاني عاقبة وهَنِهم. ومهما بقي لديهم من الطاقة، فإنّهم لم

يعودوا يملكون ما يختفي وراء كلّ طاقة أو ما يبرّرها. ها هم يكرّسون أنفسهم للتفاهة وكأنّهم هلفيتيّون[1] في طور النموّ، منقطعين أبدًا عن إفراطهم المعتاد، مرغمين على اجترار فضائلهم المتدهورة ورذائلهم المتقلّصة، وأملهم الوحيد أن يكونوا قبيلة كأيّ القبائل. لم يعودوا جديرين بالخوف الذي مازالوا يثيرونه في النفوس. إنّ الإيمان بهم أو الخشية منهم تشريف لهم لا يستحقّونه. لقد كان فشلهم نعمةً على روسيا. لو نجحوا لأزيحت عن مطامعها على الأقلّ لمدّة قرن. لكنّهم لم يكونوا قادرين على النجاح، فقد بلغوا ذروة قوّتهم الماديّة حين لم يعد لديهم ما يعرضون علينا، حين أصبحوا *أقوياء وخاوين*. كانت الساعة قد دقّت بعد لفائدة آخرين. «أليس الروس جرمانيّين قدامى بالنسبة إلى العالم الذاهب؟» هكذا تساءل في منتصف القرن الماضي هيرزن[2]، أكثر الليبراليّين الروس بصيرةً وحيرة، المفكّر ذو الأسئلة النبوئيّة الذي أقرفته بلاده وخيّب ظنّه الغرب، حتى بات عاجزًا عن الاستقرار في وطن بقدر عجزه عن الاستقرار في مسألة، على الرغم من ولعه بالتفكّر في حياة الشعوب، ذلك الموضوع المبهم الذي لا ينضب والذي يتسلّى به

---

(١) هلفيتيّون (Helvètes): أو الهلفت، مجموعة شعوب سلتيّة جرمانيّة، كان لها دور كبير في حرب بلاد الغال، وبقاياها مستقرّة في سويسرا الحاليّة وإليها ينتسب معظم السويسريّين.

(٢) هيرزن (Alexandre Herzen): الفيلسوف والكاتب الروسي (١٨١٢-١٨٧٠)، المعروف بكونه أحد آباء الاشتراكية والمفكّر الذي مهّد الجو السياسي لتحرير العبيد سنة ١٨٦١.

المهاجرون. إلاّ أنّ الشعوب، إذا صدّقنا روسيًّا آخر هو سولوفييف[1]، ليست على الصورة التي تتخيّلها لنفسها، بل هي على الصورة التي يكوّنها عنها الربّ في أبديّته. أجهل ما هي آراء الربّ في الجرمانيّين والسلافيّين، لكنّي أعرف أنّه حابى هؤلاء الأخيرين، وأنّ من غير المجدي شكره أو لومه على ذلك.

لقد تمّ اليوم حسم المسألة التي كان الروس في القرن الماضي يطرحونها في شأن بلادهم: «هل خُلق هذا العملاق عبثًا؟» كلاّ، إنّ لهذا العملاق معنًى، وأيّ معنًى! في وسع خارطة إيديولوجيّة أن تكشف أنّه يمتدّ إلى أبعد من حدوده، وأنّه يرسمُ هذه الحدود كما يشاء، وكما يحلو له، وأنّ لحضوره في كلّ مكان أثرًا لا يُذكّر بالأزمة بقدر ما يُذكّر بالوباء، المفيد أحيانًا والضارّ غالبًا والصاعق في كلّ الأحيان.

كانت الإمبراطوريّة الرومانيّة صنيعةَ مدينة، وأنشأت أنكلترا إمبراطوريّتها بحثًا عن مخرج من جزيرتها الضيّقة، وحاولت ألمانيا إقامة إمبراطوريّة كي لا تختنق في أرض مكتظّة بالسكّان. أمّا روسيا الظاهرة الفريدة، فقد توجّب عليها أن تبرّر خططها التوسّعيّة باسم مساحتها الشاسعة. «ما دمتُ أملك ما يكفي فلماذا لا أملك المزيد؟» تلك هي المفارقة الضمنيّة في كلامها وفي صمتها. لقد حوّلت المُطلق إلى مقولة سياسيّة، ومن ثمّ كان لابدّ لها من أن تخلخل المبدأ الكلاسيكيّ والأُطُر التقليديّة للإمبرياليّة، باعثة في العالم بأسره أملاً أكبر من أن لا ينحطّ إلى بلبلة.

---

(١) سولوفييف (Vladimir Soloviev): فيلسوف وشاعر روسي (١٨٥٣-١٩٠٠).

إنّها بقرونها العشرة من الرعب والظلمات والوعود، لأَقْدَرُ من أيٍّ كان على التطابق مع الجانب المُعتِم للحظة التاريخيّة التي نمرّ بها. القيامة لائقة عليها تمامًا، وهي معتادة عليها شغوفة بها، وتمارسها اليوم أكثر من أيّ وقت مضى بما أنّها غيرّت من إيقاعها. كان غوغول قد سأل منذ زمن «إلى أين تسرعين هكذا يا روسيا؟» وقد انتبه إلى السُعار المختفي تحت سكونها الظاهر. نحن نعرف اليوم إلي أين تجري. ونعرف خاصّةً أنّها مثل كلّ الأمم ذات القدَر الأمبرياليّ، متلهّفةٌ إلى حلّ مشاكل الآخرين أكثر ممّا هي متلهّفة إلى حلّ مشاكلها. هذا يعني أنّ موقعنا في *الزمن* رهين بما تقرّره أو تقوم به. إنّها تُحكم قبضتها على مستقبلنا. . . لكن من حسن حظّنا أنّ الزمن لا يستنفد جوهَرنا. فأين ينشأ ما لا يَتْلَفُ وما هو في مكان آخر؟ هل ينشأ فينا؟ هل ينشأ خارجنا؟ كيف لنا أن نعرف؟ لا أسئلة تستحقّ الاهتمام والوضع على ما هو عليه، سوى أسئلة الإستراتيجيا والميتافيزيقا، تلك التي تزرعنا في التاريخ وتلك التي تقتلعنا منه: الأخبار اليوميّة والمُطلق، الصُحُفُ والأناجيل. . . أكاد أرى اليوم الذي لن نقرأ فيه غير البرقيّات والصلوات. الأمر اللافت أنّنا كلّما غصنا في الراهن ازددنا وعيًا بحاجتنا إلى الانقلاب عليه، فإذا نحن نعيش داخل اللحظة نفسها، في العالم وخارج العالم. هكذا لا يبقى لنا أمام تتابع الإمبراطوريّات، إلاّ أن نبحث عن حدٍّ أوسط بين السخرية والسكينة.

١٩٥٧

في مدرسة الطغاة

إنّ من لم تُغْوِهِ الرغبة في أن يكون الأوّل في المدينة لن يفقه شيئًا من اللعبة السياسيّة، ولن يفهم شيئًا من إرادة إخضاع الآخرين لتحويلهم إلى أشياء، كما لن يحدس شيئًا من العناصر التي يتكوّن منها فنّ الاحتقار. قليلون هم أولئك الذين لم يشعروا بالظمأ إلى امتلاك السلطة بدرجة من الدرجات. إنّه شعور طبيعيّ يتّخذ عند التأمّل كلّ خصائص الحالة المرضيّة التي لا نشفَى منها إلاّ عرضًا، أو بعد عمليّة نضج باطنيّ شبيهة بما جرى داخل شارلكان حين تخلّى عن العرش في بروكسل وهو في ذروة مجده، ملقّنًا العالم درسًا مفادهُ أنّ الإفراط في الملل يمكن أن يولّد مشاهد لا تقلّ إثارةً للإعجاب عمّا يولّده الإفراط في الشجاعة. إلاّ أن الزهد في السلطة أعجوبةً كان أم شذوذًا، هو تحدٍّ لثوابتنا وهويّتنا لا يحدث إلاّ في لحظات استثنائية، كحالة قصوى تُرضي الفيلسوف وتُربِك المؤرّخ.

افحص نفسك لحظة يساورك الطموح وتفترسك حُمّاه. قم بعد ذلك بتشريح «سَوْراتك» تجِدْها مسبوقة بأعراض غريبة، على رأسها نوع من التهيّج الخاصّ يظلّ يلهب حماستك ويثير حذرك.

فإذا أنت وقد سمّمك المستقبل لفرط الأمل، تشعر فجأة بأنّك مسؤول عن الحاضر مسؤول عن المستقبل، في قلب الديمومة المعبّأة برعشاتك، تلك الديمومة التي تحلم بالانفجار معها وكأنّك عامل فوضى كونيّة. وإذا أنت منتبهٌ إلى أحداث دماغك وتقلّبات دمك، منكبٌّ على اختلالك، متلهّفٌ على علاماته مغرمٌ بها.

إنّ الجنون السياسيّ مصدر اضطرابات ولحظات وهن لا نظير لها. وهو جنون قد يطغى على الذكاء لكنّه يعرف في المقابل كيف يُغلّب الغرائز ويلقي بك في فوضى مخلّصة. حيث تبهجك فكرةُ الخير وتحديدًا فكرة الشرّ الذي تتخيّل أنّك قادر على إتيانه، فتحسّ بنشوة عارمة. هكذا تحصل معجزة إعاقاتك، إذ تنصّبك سيّدًا على الجميع وعلى كلّ شيء.

ستلاحظ من حولك اختلالاً مماثلاً لدى كلّ من تفترسهم الرغبة نفسها. لن يتعرّف عليهم أحد طالما ظلّوا تحت هيمنة المرض نفسه. سيظلّون فريسة سُكْر لا يشبه أيّ سُكْرٍ وسيتغيّر كلّ شيء فيهم حتّى نبرة الصوت. إنّ الطموح مخدّرٌ يجعل من مُدمِنِهِ مجنونًا كامنًا قد يكشف عن نفسه في أيّ لحظة. تلك السمات، تلك الهيئة الشبيهة بهيئة بهيمة جامحة، تلك الملامح القلقة التي تبدو مشحونة بنشوة دنيئة، إنّها أعراض لابدّ أن يلحظها أحدنا عل نفسه أو على الآخرين، وإلاّ ظلّ في غفلة عن لعنات السلطة ونِعَمَها. السلطة، ذاك الجحيم المنشّط، ذاك الخليط من السمّ والترياق.

تخيّل الآن المسار المعاكس. ما أن تزول عنك الحمّى حتّى

تَراكَ وقد انكشف عنك السحر فإذا أنت عاديٌّ حدَّ الإفراط. خالٍ من كلّ طموح ومن ثمّ خالٍ من أيّ وسيلة لتكون اسمًا عَلَمًا أو شيئًا مميّزًا. إنّك اللاشيء وقد تشخّص. الفراغ وقد تجسّد: غُدَد وأمعاء بعيدة النظر، عظام أُعيدت من ضلالها، جسد اجتاحه الوعي وتطهّر من ذاته فإذا هو خارج اللعبة، خارج الزمن، معلّقٌ في أناهُ المتجمّد داخل معرفة مطلقة لا معارف فيها. أين تجد اللحظة الهاربة؟ من يعيدها إليك؟ ليس مِنْ حولِكَ إلاّ مسعورون أو مسحورون. حشْدٌ من الشاذّين هجرهم العقل ولجأ إليك أنت الوحيد الذي فهم كلّ شيء، أنت المتفرّج المُطلق التائه وسط مغفّلين، العصيُّ أبدًا على المهزلة الجماعيّة. هكذا تظلّ تكبُرُ الفجوة الفاصلةُ بينك وبين الآخرين، حتّى أنّك تسأل إن لم تكن قد قبضتَ على حقيقةٍ ظلّت تراوغ الجميع. قد يبدو لك هذا الكشف بسيطًا وقد يبدو لك أساسيًّا لكنّ مضمونه سيظلّ غامضًا في نظرك. الأمر الوحيد الذي لن تشكّ فيه هو بلوغك درجة عجيبة من التوازن بفضل استغناء ذهنك عن كلّ شراكة مع الغير. أنت العاقل دون وجه حقّ. أنت أكثر الحكماء اعتدالاً. هكذا تبدو لنفسك. وإذا ظلّ بينك وبين من حولك من المسعورين وجه شبه فأنت تشعر بأنّ شيئًا مَا باتَ يميّزك عنهم إلى الأبد. ذاك الشعور أو ذاك الوهم، سيدفعك إلى القيام بنفس الأعمال التي يقومون بها ولكن بحماسة أخفّ وبقناعة أقلّ. سيصبح الغشّ في نظرك مسألة شرف والطريقةَ الوحيدة للانتصار على «سَوْراتك» أو للحيلولة دون عودتها. ولمّا استوجب كلّ ذلك ما لا يقلّ عن كشفٍ أو انهيار، فإنّ استنتاجك الوحيد سيتمثّل في

أنّ كلّ من لم يمرّ بأزمة مشابهة، سيسقط أكثر فأكثر في الغلوّ المتلبّس بجنسنا البشريّ.

هل لاحظتم التناظر؟

للتحوّل إلى رجل سياسة أي للحصول على إهاب طاغية لابدّ من خلل عقليّ. وللكفّ عن ذلك لابدّ من خلل آخر. أليس الأمر في النهاية مسخًا لجنون العظمة؟ إنّ المرور من الرغبة في أن تكون الأوّل في المدينة إلى الرغبة في أن تكون الأخير، ليس سوى محاولةٍ لإحلال جنون ثابت محلّ جنون متحرّك، بواسطة انقلاب الكبرياء على نفسها. إنّه نوع غريب من الخَبَل لا يقلّ غرابةً عن الزهد الذي ينتج عنه والذي لا يدخل في اعتبارنا، بما أنّه ينتمي إلى النُسْك أكثر ممّا ينتمي إلى السياسة.

استغرقت شهيّةُ القوّة آلاف السنين كي تتناثر في العديد من الديكتاتوريّات الصغيرة والكبيرة التي عاثت فسادًا هنا وهناك، ويبدو أنّ الوقت حان كي تتجمّع هذه الشهيّة وتتكثّف وتشهد ذروتها في تعبير أوحد عن ذلك العطش الذي التهم الكرة الأرضيّة وما انفكّ يلتهمها، تجسيدًا لمنتهى أحلامنا بالسلطة وتتويجًا لانتظاراتنا وانحرافاتنا. هكذا يُتاح للقطيع المتشتّت أن يُجمع تحت حراسة راعٍ لا يرحم. نوع من الغول الكونيّ الذي تخرّ له الأمم في رعبٍ شبيه بالنشوة. ويكون خضوع الكون إعلانًا عن نهاية فصل هامّ من فصول التاريخ. ثمّ يبدأ تفكّك العهد الجديد والرجوع إلى الفوضى البدائيّة القديمة وتنبعث العداوات والرذائل المكبوتة ومعها صغارُ الطغاة الذين عرفت

أشباهَهم الدوراتُ الزمنيّة الغابرة. تختفي العبوديّة الكبرى وتخلفها العبوديّة العاديّة. إلاّ أنّ الناجين من العبوديّات الكبرى سرعان ما يُحيون ذكراها بوصفهم ضحايا منقطعي النظير من حقّهم الفخر بما طالهم من خزي وخوف.

نبِيّي هو ديورر[1]. كلّما تأمّلتُ في مسيرة القرون ازددتُ اعتقادًا في أنّ الصورة الوحيدة القادرة على كشف معناها هي تلك المتجلّية في *فرسان القيامة*. لا تتقدّم الأزمنة إلاّ دوسًا على الجموع وسحقًا لها. يهلك الضعاف شأنهم في ذلك شأن الأقوياء وحتى الفرسان لا يبقى منهم سوى *واحد*. من أجله هو ومن أجل مجده الرهيب تتعذّب العصور وترفع عقيرتها بالصياح. أنا ذا أراه يسدّ الأفق مقتربًا، أنا ذا أنتبه إلى آهاتنا، بل أسمع صرخاتنا. وهذا الليل الذي لن يلبث أن يتغلغل في عظامنا، لا أظنّه يحمل إليها الطمأنينة كما فعل مع منشد المزامير، بل الرعب.

لو حكمنا على عصرنا في ضوء ما أنجبه لنا من طغاة لجاز القول إنّه لم يكن عصرًا فاشلاً. علينا أن نعود إلى الإمبراطوريّة الرومانيّة أو إلى غزوات المغول كي نجد طغاة مثل طغاتنا. ويعود الفضل إلى هتلر أكثر ممّا يعود إلى ستالين في منح هذا القرن نبرته الأساسيّة. ليس هتلر مهمّا لذاته بل لما يعلن عنه

---

(١) ديورر (Albrecht Dürer): الرسام الألماني الكبير (١٤٧١-١٥٢٨). ترك العديد من الأعمال من رسوم ومحفورات إلخ.. .من بينها عمل الفرسان الأربعة، كما ترك العديد من الكتابات النظريّة.

بوصفه مسودّةً لمستقبلنا، نذيرًا عن قادم قاتم وهيستيريا كونيّة، نموذجًا أوّل عن ذلك المستبدّ القارّي الّذي سينجح في توحيد العالم بواسطة العلم الموظّف لا لتحريرنا بل لاستعبادنا. عرفنا ذلك من قبل وسنعرفه من جديد ذات يوم. لقد وُلدنا لنُوجد لا لنعرف، لنكون لا لنؤكّد ذواتنا. وليس أمام المعرفة وقد هيّجت ونشّطت شهيّتَنا إلى القوّة إلاّ أن تقودنا حتمًا إلى هلاكنا. ذاك شرطنا الذي انتبه إليه سِفْرُ التكوين أفضل ممّا فعلت أحلامنا وأنظمتنا.

علينا أن نكفّر بواسطة قدْرٍ إضافيّ من اللاتوازن عن كلّ ما تعلّمناه بأنفسنا، عن كلّ معلومة استخرجناها من رصيدنا الخاصّ. إنّ المعرفة ثمرة فوضى حميمة، ثمرة مرض معيّن أو غامض، ثمرة اضطراب في أرومة وجودنا، لذلك هي تفسد اقتصاد الكائن. على كلٍّ أن يدفع ثمنًا مقابل أدنى اعتداء على كونٍ منذور للامبالاة والركود. ولا شكّ أنّ كُلاًّ سيندم آجلاً أم عاجلاً على أنّه لم يدع ذلك الكون محتفظًا ببكارته. يصحّ هذا في شأن المعرفة لكنّه يصحّ أكثر في شأن الطموح، لأنّ عواقب التطاول على الغير أفدح وأقرب من عواقب التطاول على المجهول أو على المادّة. نبدأ بإرعاب الآخرين لكنّ الآخرين لا يلبثون أن يعدونا برعبهم. لذلك يعيش الطغاة في رعب هم أيضًا. أمّا الرعب الذي سيعرفه سيّدنا القادم فلاشكّ أنّه سيكون مدعومًا بسعادة مشؤومة لم يعرف مثيلاً لها أحد من قبله. سعادة في حجم المستوحد بامتياز الواقف في وجه الإنسانيّة جمعاء، شبيهًا بإله جالس على عرش من الخوف في هالة من الهلع لا

أوّل لها ولا آخر، جامعًا بين فظاظة بروميثيوس[1] وزهْو يَهْوَهْ[2]، فضيحة للمخيّلة وللفكر، تحدّيًا للميثولوجيا وللثيولوجيا.

بعد الغيلان المحصورين في حدود مدينة أو مملكة أو إمبراطورية من الطبيعيّ أن يظهر آخرون أكثر جبروتًا بمناسبة كارثة من الكوارث أو على إثر تصفية أممنا وحريّاتنا. إنّه الإطار الذي ننجز فيه نقيض أحلامنا ولا ندّخر جهدًا في تشويه تطلّعاتنا. لا شكّ في أنّ التاريخ ليس من جوهر ملائكيّ. ولو تمعنّا فيه جيّدًا لما راودتنا سوى رغبة وحيدة: رفع المرارة إلى مرتبة اللاهوت.

لا يخلو بشر من بعض الحسد أمّا رجال السياسة فهم حُسّاد بشكل مُطلق. لا يُتاح لأيّ شخص أن يصبح رجل سياسة إلاّ بقدر ما لا يتحمّل وجود أي شخص إلى جانبه أو أرفع منه درجة. إنّ الانطلاق في أيّ مشروع مهما كان تافهًا يعني بالضرورة الوقوع في ممارسة الحسد، أقصى ميزات الأحياء وقانون الأفعال وحافزها. يغادرك الحسد فإذا أنت حشرة، لا شيء، ظلٌّ أو مريض. أمّا إذا دعمك الحسد فقد ظفرت بمن يقيل عثرات كبريائك ويسهر على مصالحك وينهضك من

(١) بروميثيوس: أحد جبابرة الميثولوجيا الإغريقية، عاقبته الآلهة لأنه منح البشر بعض الأسرار الإلهيّة.

(٢) يهْوَه (Yahvé ou Jéhovah): جاء في سِفْر الخروج: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: يَهْوَهْ إِلَهُ آبَائِكُمْ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. هَذَا اسْمِي إِلَى الأَبَدِ وَهَذَا ذِكْرِي إِلَى دَوْرٍ فَدَوْرٍ»

خمولك ويجترح لك أكثر من معجزة. أليس غريبًا أن يسكت الطبّ والأخلاق عن محاسن الحسد في حين أنّه أكثر رحمة من العناية الإلهية وأنّه يسبق خطانا ليوجّهها؟ الويل لمن يتجاهل الحسد أو يهمله أو يتهرّب منه فهو يتهرّب في الوقت نفسه من تبعات الخطيئة الأولى، من الحاجة إلى الفعل والإبداع والتهديم. عمّ يبحث بين الآخرين من كان عاجزًا عن الغيرة منهم؟ لن يكون مصيره غير مصير الحُطام، ومن أجل خلاصه لابدّ من إجباره على الدخول في قالب الطغاة والاستفادة من شططهم وشرورهم. من الطغاة وليس من الحكماء سيتعلّم كيف يستعيد رغبته في الأشياء وكيف يعيش وكيف ينحطّ. ليصعدْ من جديد نحو الخطيئة وليستعدْ مكانه في السقوط إذا كان يريد أن يُساهم هو أيضًا في الهوان العامّ، في هذا الانتشاء باللعنة الذي يغمر المخلوقات. هل يفلح في ذلك؟ لا يوجد أمرٌ مشكوك فيه أكثر من هذا الأمر. إنّه لا يقلّد من الطغاة إلاّ عزلتهم. فلْنَرْثِ لحاله ولْنُشْفِقْ على هذا البائس الذي لم يُرضِهِ أن يتعهّد رذائله وأن يتنافس مع غيره فظلّ دون نفسه وتحت الجميع.

إذا كانت الأفعال ثمرة الحسد فإنّ من السهل أن نفهم لماذا يؤول الصراع السياسيّ في تعبيره الأقصى إلى حسابات وخطط لا هدف لها سوى تأمين إقصاء المنافسين والأعداء. هل تريد إصابة المرمى؟ ابدأ بتصفية أولئك الذين لمّا كانوا يفكّرون وفق تصنيفاتك وتصوّراتك وساروا في الطريق نفسه إلى جنبك فلا شكّ أنّهم يحلمون بالحلول محلّك أو الإجهاز عليك. إنّهم أخطر منافسيك. ركّز عليهم فإنّ في وسع الآخرين الانتظار. لو

أتيح لي أن أستولي على السلطة لما انشغلتُ بشيء قبل القضاء على جميع أصدقائي. إنّ أيّ تصرّف آخر إساءة إلى المهنة وإهانة للطغيان. هتلر وهو عالي الكفاءة في هذا المجال أعرب عن الكثير من الحكمة حين تخلّص من روهيم[1] الشخص الوحيد الذي كان يخاطبه بنديّة، بمعيّة مجموعة من رفاقه القدامى. ستالين من جانبه لم يكن أقلّ مستوى، والدليل محاكمات موسكو.

في وسع الفاتح أن يسمح لنفسه باقتراف أيّ جرم فلا أحد يحاسبه ما دام ينجح ويتقدّم. أمّا إذا أولاه الحظّ ظهره فإنّ في وسع أصغر الأخطاء أن يجرّ عليه أوخم العواقب. يتوقّف كلّ شيء على اختيار اللحظة المناسبة للقتل. إن من شأن الجريمة المرتكبة في ذروة المجد أن تساهم في توطيد السلطة عن طريق الخوف المقدّس الذي تبعثه في النفوس. يتوازى فنُّ فرْضِ الخوف والاحترام مع فنّ انتهاز الفرص. كان موسوليني[2] نموذج المستبدّ غير الكفء أو غير المحظوظ حين أطلق العنان إلى قسوته بعد أن أصبح فشله أكيدًا وسمعته في الحضيض. هكذا أمكن لأشْهُرٍ من الانتقام سيّء التوقيت أن تلغيَ عناءَ

(١) روهيم (Ernst Röhm): عسكريّ ألماني ولد سنة ١٨٨٧ وكان صديق هتلر، إلاّ أنّ هذا الأخير أعدمهُ سنة ١٩٣٤، بتهمة التآمر والشذوذ الجنسي، لإخفاء حملة التصفية التي أذن بها لتوحيد الحزب.

(٢) موسوليني (Benito Amilcare Andrea Mussolini): القائد الإيطاليّ (١٨٨٣-١٩٤٥) الذي أسس الكتائب التي أصبحت نواة حزبه الفاشي الذي وصل به الحكم. دخل الحرب العالميه الثانية مع دول المحور وأعدم على يد الشعب الإيطالي عام ١٩٤٥.

عشرين سنة. في حين كان نابوليون أكثر فطنة. لو أبطأ في إعدام دوق أنغيان[١] ولو أرجأه إلى ما بعد حملة روسيا مثلاً لما بقي منه إلاّ صورة جلاّد، بينما ها هو ذلك الإعدام لا يظهر اليوم في ذكراه إلاّ بمثابة لطخة صغيرة لا أكثر.

وإذا أمكن الحكم في بعض الأحوال دون جرائم، فهو غير ممكن في كلّ الأحوال دون مظالم. إلاّ أنّه لابدّ من دوزنة هذه وتلك، لابدّ من اقترافها على جرعات. كي تُغفر لك جرائمك ومظالمك عليك أن تعرف كيف تتظاهر بالغضب أو بالجنون. عليك أن تعطي الانطباع بأنّك دمويّ عن غير قصد. عليك أن تحوك ألاعيبك البشعة من خلف ملامح طيبة القلب. ليست السلطة المطلقة بالمَرْكَب السهل ولا يبرع فيها إلاّ الممثّلون أو القتلةُ من الطراز الأوّل. لا شيء أكثر إثارة للإعجاب إنسانيًّا وأكثر إثارة للشفقة تاريخيًّا من طاغية أحبطته وخزات ضميره.

«والشعب؟» قد يقول أحدهم.

ليس من مفكّر أو مؤرّخ استعمل هذه الكلمة دون سخرية إلاّ خسر كلّ اعتبار. فنحن نعرف جيّدًا ما هو مُقَدَّرٌ للشعب: أن يرضخ للأحداث ولأهواء الحُكّام وأن يرضَى بخدمة أهداف تلغيه وتقهره. كلّ تجربة سياسيّة مهما تطوّرت لا تتمّ إلاّ على حسابه ولا تتّجه إلاّ ضدّه. إنّه يحمل علامات العبوديّة بقرار إلهيّ أو شيطانيّ ولا فائدة من الرثاء له فليس لقضيّته أمل. بل إنّ الأمم

(١) دوق أنغيان (Duc d'Enghien): حفيد أمير كوندي (١٧٧٢-١٨٠٤) أمر نابوليون بإعدامه للفتّ من عضد الملكيّين الذين كانوا يعارضونه.

والإمبراطوريّات لا تتكوّن إلاّ بفضل قبوله بالأعمال الجائرة التي هو ضحيّة لها، وليس من قائد دولة أو فاتح إلاّ وهو يحتقره، وعلى الرغم من ذلك فإنّه يرضى بهذا الاحتقار ويعيش عليه. والحقّ أنّه لو كفّ عن لعب دوره كضحيّة واهنة وتمرّد على مصيره المحتوم لتبخّر المجتمع البشريّ ومعه التاريخ كلّه. ولكن دعونا لا نغرق في التفاؤل فليس من مؤشّر فيه يسمح بتوقّع فرضيّة بمثل هذا الجمال. إنّ الشعب، كما هو، يمثّل دعوة إلى الاستبداد. إنّه لا يكتفي بتحمُّلِ مِحَنِهِ بل يستدعيها أحيانًا ولا يثور عليها إلاّ ليلهث خلف محنٍ جديدة أكثر فظاعة من السابقة. ولمّا كانت الثورة ترَفَهُ الوحيد فإنّه يهرع إليها لا طمعًا في تحقيق مكاسب أو أملاً في تحسين وضع، بل ليكتسب هو أيضًا الحقّ في أن يكون وقحًا، وهي الميزة التي تعزّيه عن خيباته العاديّة، لكنّه سرعان ما يفقدها ما أن يتمّ إلغاء امتيازات الفوضى. لا نظام يضمن له خلاصه لذلك فهو يتأقلم مع الكلّ ومع لا أحد. ولا مطمح له منذ الطوفان وصولاً إلى القيامة إلاّ أن يُتقن القيام بمهمّته كمهزوم.

تكملةً لموضوع الأصدقاء، ثمّة سبب آخر إضافة إلى ما سلف ذكرُه يبرّر القضاء عليهم. إنّهم شديدو الاطّلاع على حدودنا وعلى نقاط ضعفنا (في هذا تتلخّص الصداقة ولا شيء أكثر) ممّا يمنع أي إيهام لهم في كلّ ما يتعلّق بجدارتنا. لن يرتاحوا لارتقائنا إلى مرتبة المعبود على العكس من الرأي العامّ المستعدّ لذلك كلّ الاستعداد، وسينتدبون أنفسهم محافظين على تفاهتنا حريصين على حجمنا *الحقيقيّ*، ومن ثمّ، سيحولون دون

انتفاخ الأسطورة التي نريد خَلْقَها لشخصنا، وسيعملون على تثبيتنا في صورتنا الصحيحة مُشَهّرين بالصورة المزيّفة التي نملكها عن نفسنا. وإذا عنّ لهم أن يتكرّموا علينا ببعض الإطراء فإنّهم يضمّنونه من التلميح والاحتراز والمداورة ما يجعل إطراءهم مرادفًا للشتيمة. إنّ ما يتمنّونه في السرّ هو انهيارنا وهواننا ودمارنا. ولمّا كانوا يرون في نجاحنا نوعًا من الاغتصاب فإنّهم لا يوجّهون نظرهم الثاقب إلاّ إلى فحص أفكارنا وأعمالنا كي ينوّهوا بخوائها، ولا يتسامحون معنا إلاّ حين نشرع في السقوط. إنّهم شديدو التشوّف إلى مشهد انهيارنا حتى أنّهم، لحظتَها، يحبَوننا حقًّا ويتعاطفون مع مصائبنا وينسون أوجاعهم ليقاسمونا أوجاعنا ويقتاتوا منها. كانوا أثناء صعودنا يتفحّصوننا بلا رحمة، كانوا موضوعيّين، وها هم الآن يسمحون لأنفسهم بأناقة النظر إلينا على غير حقيقتنا، غافرين لنا نجاحاتنا السابقة وقد باتوا واثقين من أنّنا لن نحقّق نجاحات لاحقة. وإنّ من شدّة ضعفهم تجاهنا أنّهم يصرفون معظم وقتهم في الاهتمام بعاهاتنا والذهول أمام إعاقاتنا. لقد تمثلّ خطأُ نيرون الأفدح في أنّه لم يحترز من أقرب الناس إليه، أولئك الذين كانوا يراقبونه عن كثب إلى حدٍّ يتعذّر معه عليهم التسليم بانتسابه إلى سلالة إلـهيّة. ومن ثمّ رفضوا تأليهه في حين قبلت به الجموع، ولكن الجموع تقبل بكلّ شيء. لو تخلّص منهم لعرف، عوضًا عن ميتته الباهتة، ميتةً لا يخبو توهّجها كأروع ما يكون تفسّخٌ في حجمِ إلهٍ حقيقيّ. لم يَخْلُ نيرون من بعض السذاجة على الرغم من فطنته. كان يجهل أنّ أقرب الناس إلى شخصنا هم أخطر أعداء *تمثالنا*.

في الجمهوريّة، فردوس الغباوة، ليس رجل السياسة سوى خادم للمستبدّ خاضع للقوانين. أمّا ذو الشخصيّة القويّة فإنّه لا يحترم هذه القوانين أو قل إنّه لا يحترم منها إلاّ تلك التي تكون من وضْعِه. إنّه من الخبرة في الشناعة بحيث يرى في التهديد شرف مسيرته المهنيّة وذروتها. وإنّ في إحساسه بالقدرة على توجيه تهديد أو أكثر لذّةً تبدو حيالها كلّ اللذائذ الأخرى مجرّد تصنّع. لا أفهم أن يطمح أحدهم إلى القيادة إذا كان لا يتوق إلى هذا الاستفزاز الفريد من نوعه والأكثر وقاحة من بين أنواع الاستفزاز والأبشع حتى من العدوان الذي عادةً ما يتلوهُ. «كم من تهديد يستطيع أن يوجّه؟» ذاك هو السؤال الذي يُفتَرض أنّ نطرحه في شأن أيّ رئيس دولة. لن يأبه التاريخ لقائدٍ ليس في رصيده أيّ تهديد، فالتاريخ يَنْشطُ في فصل الفظاعة ويداهمه الضجر في فصل التسامح والليبراليّة، ذلك النظام التي تخبو فيها الحرارة ويغلب على أكبر مشاكسيه، في أفضل الأحوال، مظهر المتآمرين المُهذّبين.

أرثي لحال من لم يراودهم الحلم بالسيطرة المُطلقة ولم يشعروا في داخلهم بالأزمنة وهي تُدَوّم. ذات يوم كان أهريمان[١] مبدئي وإلهي وكنتُ أطلقُ العنان لهمجيّتي التي لا تشبع منصتًا في داخلي إلى العصابات تتدفّق باعثةً ألذّ الكوارث. وعلى الرغم من

---

(١) أهريمان (Ahriman): إله الشرّ في الزرادشتيّة، وهو في حرب دائمة مع إله الخير، ويُفترض أن تنتهي الحرب بهزيمته وغلبة الخير المحض على العالم فلا يكون للشر وجود.

أنّي أغرقتُ اليوم في التواضع فإنّي مازلتُ محافظًا على بعض الضعف تجاه الطُغاة الذين ما فتئتُ أفضّلهم على المُخلّصين والأنبياء. أفضّلهم لأنّهم لا يتوارون خلف الشعارات، لأنّ مجدهم ملتبس وظمأهم مُشرب بتدمير الذات، بينما الآخرون مسكونون بطموح لا حدّ له، يخفون مطامعهم تحت أقنعة من المبادئ المُضلّلة، ويُعرِضُونَ عن المُواطن كي يَحْكُموا الضمائر ويستولوا عليها ويستقرّوا فيها، محدثين فيها أضرارا دائمة، دون أن يتعرّضوا إلى ما يستحقّون من لوم على تطفّلهم وساديّتهم. ماذا تساوي سلطة الفاتحين بالمقارنة مع سلطة بوذا أو يسوع أو محمد؟ عليكم أن تزهدوا في فكرة المجد إذا لم تفتنكم فكرة تأسيس ديانة. وعلى الرغم من أنّ الأماكن الشاغرة في هذا المجال قد أصبحت قليلة بل قليلة جدًّا، فإنّ البشر لا يستسلمون إلى اليأس بسهولة. وهل رؤساء الطوائف إلاّ مؤسّسو ديانات من درجة ثانية؟ لو اكتفينا بالمقارنة على أساس النجاعة لرأينا أنّ كالفين[1] ولوثر، بسبب ما أثاراه من نزاعات لم تجدّ حلاّ لها حتى اليوم، قد غطّيا على شارلكان وفيليب الثاني. إنّ القيصريّة الروحيّة أمضى حدًّا وأبعد أثرًا من القيصريّة المُجرّدة. إذا أردتم تخليد ذِكركم فاربطوه بكنيسة وليس بإمبراطوريّة. هكذا يتوفّر لكم مريدون مرتبطون بمصيركم أو بنزواتكم. مؤمنون في وسعكم تخليصهم أو العبث بهم وفق مشيئتكم.

---

(١) كالفين (Jean Calvin): مصلِح ديني ولاهوتي فرنسي (١٥٠٩-١٥٦٤)، مؤسس المذهب الكالفيني الذي انتشر في سويسرا وفرنسا.

لا يتورّع قادة الطوائف عن شيء والسبب أنّ مشاعرهم نفسها جزء من تكتيكهم. ودون أن نذهب إلى الطوائف كفرضيّة قصوى في وسعنا التأكيد أنّ التفكير حتى في إنشاء رهبانيّةٍ صغيرة أفضل بكثير في ميزان الطموح من الرغبة في حُكم مدينة أو في تأمين فتوحات بقوّة السلاح. التغلغل في العقول، التحكّم في أسرارها، سلبُها بشكلٍ مَا من ذاتها ومن وحدانيّتها، الذهاب إلى حدّ انتزاع أثمن ميزاتها منها، تلك التي يُفترض أنّها مُحصّنة تمامًا، ميزةُ «قرارة النفس». أيّ طاغية أو فاتح تجرّأ على مثل هذه الأهداف العصيّة؟ ستظلّ الإستراتيجيّة الدينيّة دائمًا أذْكى وأخطر من الإستراتيجيّة السياسيّة. ولنقارن بين كتاب *التمارين الروحيّة*[1] ومكرِهِ المُغَطّى بالتجرّد وكتاب *الأمير*[2] وصراحته العارية، عندئذ نكتشف المسافة الفاصلة بين الخِدَع التي يقدر عليها كرسيّ الاعتراف وتلك التي يقدر عليها عرش أو قنصليّة.

كلّما اضطرمت شهيّةُ القوّة لدى القادة الروحيّين ازداد حرصُهم، المفهوم، على إخمادها لدى الآخرين. إذ لو أتيح لأيّ منّا أن يُترك دون رادع لاحتلّ الفضاءَ بما فيه من هواء ولاعتبر نفسه مالكه الوحيد. إنّ على كلّ مجتمع يطمح إلى الكمال أن يعيد الاعتبار إلى قميص المجانين أو أن يجعله

---

(١) التمارين الروحية: كتاب من تأليف إينياس دي لويولا (١٤٩١-١٥٥٦)، من مواليد بلاد الباسك في إسبانيا. أسّس طائفة اليسوعيّين وألف هذا الكتاب انطلاقًا من تجربته الشخصيّة.

(٢) الأمير: كتاب ألّفه الإيطاليّ نيكولو ماكيافيلي (١٤٦٩-١٥٢٧) في الفقه السياسي، وانطلاقًا من شهرته وتأثيره ظهرت عبارة الماكيافيلية.

إجباريًّا. فالإنسان لا يتحرّك إلاّ من أجل ارتكاب الشرّ. وإذا كانت الأديان تبذل وسعها من أجل شفائه من هوسه بالسلطة ومن أجل تأمين وجهة غير سياسيّة لتطلّعاته، فهي تلتقي في النهاية بالأنظمة المُتسلّطة، بما أنّها تريد مثلها وعلى الرغم من اختلاف الوسائل، أن تروّضه، أن تقمع طبيعته وجنون العظمة المتأصّل فيه. لكنّ البُعدَ الذي قامت على أساسه مصداقيّة الأديان وبفضله أمكن لها حتى الآن الانتصار على نزواتنا، أقصد البعد الزهديّ، هو تحديدًا ما كفّ عن التأثير فينا. ولا مفرّ من أن ينتج عن ذلك تحرّرٌ محفوف بالمهالك، إذ يفلت قيادنا من كلّ جهة وننعتق ونتخلّص من كلّ قيودنا ومعتقداتنا، فإذا نحن ناضجون للعلاج بالرعب. إنّ كلّ من يتطلّع إلى الحريّة الكاملة لا يبلغها إلاّ ليعود إلى نقطة انطلاقه، إلى عبوديّته الأولى. من ثّمَ هشاشة المجتمعات المتطوّرة، تلك الكُتل الصمّاء التي لا معبودات لها ولا مُثُل عُليا، والتي تفتقر بفداحةٍ إلى التعصّب وتنعدم فيها الروابط العضويّة حتى يبلغ من ضياعها في أهوائها واختلاجاتها أن تعقد أملها على أمنِ النير وتبعاته، الحلم الوحيد الذي يظلّ في مقدورها. تفقد هذه المجتمعات القدرة على الاستمرار في تحمّل مسؤولية مصائرها، لذلك هي تتآمر أكثر حتى من المجتمعات البدائيّة من أجل ظهور الاستبداد، كي يخلّصها من بقايا شهيّتها للقوّة، شهيّة مُجهدة وخاوية وملحّة بلا جدوى.

إنّ عالَمًا بلا طُغاة لهو عالَمٌ لا يقلّ إضجارًا عن حديقة حيوانات بلا ضباع. فالسيّد الذي نحن في انتظاره مرتاعين لن يكون تحديدًا إلاّ مولعًا بالعفونة، ولن نظهر جميعًا في حضرته

إلاّ بمظهر الجِيَف. فلْيأتِ ليتشمّمنا، ولْيتمرّغْ في عطننا. هي ذي رائحة جديدة تخيّم على الكون.

علينا أن نراقب أنفسنا في كلّ لحظة إذا أردنا أن لا نستسلم للغواية السياسيّة. وكيف لنا أن ننجح في ذلك، خاصّة في نظام ديموقراطيّ، عيبه الأساسيّ سماحُهُ لأيّ كان بأن يطمع في السلطة وأن يطلق لأطماعه العنان؟ والنتيجة كثرةٌ من الأدعياء، مجادلون بلا مصائر، مجانين نكرات يرفض القدر أن يَسِمَهُم، لعجزهم عن السعار الحقيقيّ، ولعدم صلاحيّتهم للنصر وللهزيمة. إلاّ أنّ تفاهتهم، تحديدًا، هي ما يتيح ويؤمّن حريّاتنا التي تتهدّدها الشخصيّات الاستثنائيّة. إنّ على أيّ جمهوريّة تحترم نفسها أن تفزع لظهور رجل عظيم، وأن تنفيه عنها أو على الأقلّ أن تحول دون نشوء أسطورة من حوله. ولن يكون إحجامها إلاّ دليلاً على أنّها افتتنت بمصيبته حتى كفرت بمؤسّساتها وبأسباب وجودها. إنّها تتخبّط في قوانينها، ومن شأن تلك القوانين التي تحمي عدوّها أن تُعِدَّها للاستقالة وأن تدفعها إليها. وها هي وقد صرعها إفراطها في التسامح، تراعي الخصم الذي لن يراعيها، وتسمح بالأساطير التي تقوّضها وتدمّرها، وتنخدع بذلاقة جلاّدها. هل تستحقّ البقاء والحال أنّ مبادئها تحديدًا تدعوها إلى الزوال؟ تلك هي المفارقة التراجيديّة الملازمة للحرية: وحدهم التافهون يجعلون ممارستها ممكنة، لكنّهم لا يملكون ضمان استمرارها. نحن مدينون إلى تفاهتهم بكلّ شيء وعن طريقها نخسر كلّ شيء. من ثمّ هم دائمًا دون مستوى مهمّتهم. تلك التفاهة تحديدًا، هي

ما كنت أحقد عليه أيّام أطلقت العنان لولعي بالطغاة، الذين لن نؤكّد كفايةً، على الرغم من صورتهم الكاريكاتوريّة (هل الديموقراطيّ إلاّ طاغية متنكّر)، أنّهم يملكون قدَرًا، بل وأكثر ممّا ينبغي من القدَر. وإذا كنتُ خصصتُهم بما يشبه العبادة، فلأنّهم وقد امتلكوا غريزة القيادة، ما كانوا يهبطون إلى درك الحوار ولا إلى الحجج: كانوا يأمرون ويقرّرون دون أن يتنازلوا لتبرير أفعالهم. من ثمّ كلبيّتهم التي كنت أضعها فوق كلّ فضيلة وفوق كلّ رذيلة. كانت تلك علامة تفوّق بل ربّما سمة نبل، تميّزهم في نظري عن بقيّة الفانين. ولمّا كنت عاجزًا عن أكون جديرًا بهم عن طريق الفعل فقد رجوت أن أنجح في ذلك عن طريق الكلمة، عن طريق ممارسة السفسطة والفُحش. أن أكون شنيعًا بوسائل الذهن على قدر ما كانوا هم شنيعين بوسائل السلطة. أن أخرّب بواسطة الكلام. أن أفجّر الكلمة والعالم معها. أن أنفجر مع هذا وتلك ثمّ أتهالك أخيرًا تحت حطامهما. الآن وقد حُرِمتُ من كلّ ذلك الشطط ومن كلّ ما كان يعلو بأيّامي، ها أنا ذا أقنع بالحلم بمدينة غاية في الاعتدال، يحكمها فريق من شيوخ في الثمانين على حافة الخرَف، دمثين بحكم العادة، محافظين على ما يكفي من الوعي كي يحسنوا استعمال وَهنهم، وقد خلوا من الرغبات والحسرات والشكوك واشتدّ اهتمامهم بالتوازن العامّ والمصلحة العامّة، حتى بات من الجائز أن يروا في أيّ ابتسامة علامة على الاختلال والتخريب. لقد بلغ من سقوطي الآن أنّ الديموقراطيّين أنفسهم يبدون في نظري متطرّفين في طموحهم وهذيانهم. ولو كان حقدهم على الطغيان حقدًا نقيًّا لانضممتُ إليهم. لكنّهم لم يمقتوا

الطغيان إلاّ لأنّه يعزلهم في حياتهم الخاصّة ويحشرهم في عدمهم. حتى لا مجد أمامهم يطمعون في نيله سوى الفشل. لا مهمّة تليق بهم كالتصفية، لذلك يطيب لهم القيام بها، فإذا تميّزوا فيها أصبحوا جديرين باحترامنا. إنّ قيادة الدول إلى خرابها، عمومًا، أمر يتطلّب قدرًا من الدُربة وبعض المؤهّلات الخاصّة وربّما بعض المواهب. إلاّ أنّه يحدث أحيانًا أن تكون الظروف ملائمة فإذا المهمّة أكثر يُسرًا. وهو ما يبرهن عليه مثال الدول الآفلة المجرّدة من أيّ موارد داخليّة، الواقعة فريسة للأزمات والتمزّق وتجاذب الآراء والاتّجاهات المتناقضة. تلك كانت حال اليونان القديمة. وما دمنا ذكرنا الفشل فلنقل إنّ فشل اليونان كان مثاليًّا. وكأنّها اشتغلت على فشلها طويلاً كي تقترحه كنموذج، وكي تحملَ الأجيالَ اللاحقة على اليأس من محاولة الاقتراب منه. تبدّدَ جوهرُها وترنّحت أصنامها وتمزّقت حياتها السياسيّة بين الحزب المقدونيّ والحزب الرومانيّ، حتى لم يبق لها منذ القرن الثالث قبل الميلاد، كي تحلّ مشاكلها وتعالج اللعنات التي أصابت حريّتها، إلاّ أن تخضع للسيطرة الأجنبيّة، وأن ترضى طيلة خمسمائة عام بنير روما، مدفوعة إلى ذلك بما بلغته تحديدًا، من رقيّ وتعفّن. لم يبق من تعدّد آلهتها غير ركام من الخرافات، وتحتّم عليها من ثمّ أن تخسر عبقريّتها الدينيّة ومعها عبقريّتها السياسيّة. حقيقتان ملتحمتان لا فاصل بينهما: أن تستهدف الآلهة يعني أن تستهدف المدينة التي تحكمها تلك الآلهة. لا تستطيع المدينة أن تعيش بعد آلهتها، كذلك كان شأن روما. وللبرهنة على أنّها خسرت غريزتها السياسيّة ما أن خسرت غريزتها الدينيّة، يكفي

أن ننظر إلى ردود فعلها أثناء الحروب الأهليّة: لقد وقفت دائمًا على الضفّة الخطأ، متحالفة مع بومباي[١] ضدّ قيصر[٢]، مع بروتوس[٣] ضدّ أوكتافيوس[٤] وأنطونيوس[٥]، مع أنطونيوس ضدّ أوكتافيوس، معانقةً النحس بانتظام وكأنّها لا تجد في غير تواصل الإخفاق عزاءً وضمانة للاستقرار وراحةً في الميئوس منه. إنّ الأمم المُرهقة بآلهتها أو التي أُرهقت آلهتُها بها لا تلبث أن يسهل انهيارها مع ازدياد تمدُّنها. يرتقي المواطن على حساب المؤسّسات منقطعًا عن الإيمان بها عاجزًا عن الدفاع عنها. ما أن تحضّر الرومان عند احتكاكهم باليونان أي ما أن ضعفوا حتى غدت أيّام الجمهوريّة معدودة. فاستسلموا للدكتاتوريّة بل لعلّهم

---

(١) بومباي الكبير أو بومبيوس (Pompée le Grand): الجنرال ورجل السياسة الروماني (١٠٦-٤٨ ق م) الذي انتصر عليه يوليوس قيصر فهرب إلى مصر حيثُ وقع اغتياله خوفًا من انتقام روما.

(٢) قيصر يوليوس (Jules César): أحد الشخصيات التاريخيّة الفذة (١٠٠-٤٤ ق م) وحاكم روما المطلق بعد انتصاره على بومباي.

(٣) بروتوس (Marcus Junius Brutus): رجل الحرب والسياسة (٨٥-٤٢ ق م) الذي اشترك في اغتيال يوليوس قيصر، ومن ثمّ العبارة الشهيرة: «حتى أنت يا بروتوس» أو «حتى أنت يا ابني». ويُروى أنّه قال قبل انتحاره، على إثر هزيمته أمام أوكتافيوس: «أيتها الفضيلة، أنت لست سوى اسم».

(٤) أوكتافيوس (Caius Octavius Thurinus): ويُسمّى أيضًا أغسطس قيصر (٦٣ ق م-١٤ ب م) حكم طويلاً وبسطت روما في عهده نفوذها في ما يُسمّى السلام الرومانيّ أو الباكس رومانا.

(٥) أنطونيوس ماركوس (Marc Antoine ou Marcus Antonius)، تحالف مع اوكتافيوس بعد اغتيال يوليوس قيصر، ثمّ اختلف مع اوكتافيوس وتحالف مع كليوبترة، وانتحر على إثر هزيمتهما.

استدعوها سرًّا. ليس من روبيكون[١] دون مساعدةِ إرهاقٍ جماعيّ.

إنّ مبدأ الموت الملازم لكلّ الأنظمة أوضح في الجمهوريّات منه في الديكتاتوريّات. الأولى تنادي به وتظهره والثانية تخفيه وتنكره. دون أن يمنع ذلك هذه الأخيرة بفضل طرقها في العمل من النجاح في تأمين ديمومة أطول وخاصّة أكثر غِنًى. إنّها تلحّ في استدعاء الحدث وتسهر على تنميته، بينما قد تستغني عنه الأخرى عن طيب خاطر، فالحريّات وضع قائم على الغياب، غياب قابل للتدهور حين ينوء المواطنون بعبء أن يكونوا أنفسهم، فلا يبقى لهم من مطمح غير أن يتصاغروا، أن ينزاحوا، أن يشبعوا حنينهم إلى العبوديّة. لا شيء يثير الغمّ أكثر من وهَنِ جمهوريّة وهزيمتها. علينا أن نتكلّم في شأنها بنبرة الرثاء أو الهجاء، والأفضل أن نتكلّم في شأنها بنبرة *روح القوانين*[٢]: «حين أراد سُولاّ[٣] أن يردّ إلى روما حريّتها كانت

---

(١) الروبيكون (Le Rubicon): نهر ينبع من شمال إيطاليا ويصب في البحر الأدرياتيكي. كان القانون الروماني يحرّم على أيّ جنرال عبوره بجيش مُسلّح، حتى عبره يوليوس قيصر. أصبح عبارة عبور الروبيكون دلالة على كلّ من يجرؤ على عمل غير مأمون العواقب دون تأمين خطٍّ للرجعة.

(٢) روح القوانين: أهمّ أعمال المفكّر الفرنسي مونتيسكيو (١٦٨٩-١٧٥٥)، صاحب نظريّة الفصل بين السلطات، وظهر الكتاب لأوّل مرّة في جنيف حوالي سنة ١٧٤٨.

(٣) سولاّ (Sylla ou Sulla) القنصل ثم الديكتاتور الرومانيّ (١٣٨-٧٨ ق م) الذي عرف بلقب سولاّ المحظوظ، وواجه ماريوس غايوس في حرب أهلية طاحنة.

هي قد عجزت عن قبولها. كانت في الرمق الأخير من الفضيلة، وظلّ هذا الرمق يخفت حتى أنّها عوض أن تستيقظ بعد قيصر وتيبريوس[1] وكايوس[2] وكلوديوس[3] ونيرون ودوميسيان[4]، ازدادت عبوديّة: أصابت الضربات الطغاة لكنّها لم تصب الطغيان.»

وذلك لأنّ الاستبداد تحديدًا قد يُصبح مُستساغًا، إذ يُفضّل الإنسان أحيانًا أن يرزح تحت الخوف على أن يواجه محنة أن يكون ذاته. وما أن تُعمّم الظاهرة حتى يظهر القياصرة، فكيف نُجرّمهم وهم يستجيبون إلى طلبات بؤسنا وإلى تضرّعات جبننا؟ أليسوا أجدر بالإعجاب وهم يدنون من الاغتيال، يتوقّعونه بلا انقطاع، يرضون بفظاعته وخزيه، يكرّسون له تفكيرهم إلى حدّ نسيان الانتحار والمنفى وهما طريقتان أقلّ فرجويّة لكنّهما ألطف وأروح. لقد اختاروا الأصعب لذلك فهم لا يزدهرون إلاّ في

---

(١) تيبيريوس (Tibère ou Tiberius): ثاني أباطرة روما (٤٢ ق م-٣٧ ب م)، وفي أيّامه صُلب المسيح.

(٢) كايوس (Caius Julius Caesar): سُمّي قنصلاً لروما (٢٠ ق م-٤ ب م) ومنح قيادة جيش كبير وأُعدّ لخلافة جدّه للامّ إلاّ انّه قُتل في إحدى المعارك.

(٣) كلوديوس (Claude ou Claudius): رابع أباطرة روما (١٠ ق م-٥٤ ب م)، أصبح إمبراطورًا بعد اغتيال كليغولا، لانّه آخر الذكور المتبقّين من أسرته.

(٤) دوميسيان (Domitien ou Domitianus): آخر إمبراطور من سلالة فلافيانوس (٥١-٩٦) في عهده اضطُهد المسيحيّون للمرّة الثانية تحت الحكم الروماني.

أوقات غامضة المعالم كي يبثّوا فيها الفوضى أو يوطّدوا النظام. وليس من زمن يناسبهم مثل ذاك الذي يصادف نهاية دورة حضاريّة. كان هذا واضحًا بالنسبة إلى العالم القديم وسيكون ذلك واضحًا بالنسبة إلى العالم الحديث الذي يتقدّم بثبات في اتّجاه استبداد أشدّ وطأة من ذاك الذي شهدته القرون الأولى لعصرنا. إن من شأن أيّ تأمّل بدائيّ في المسار التاريخيّ الذي نحن نتيجته، أن يكشف لنا عن أنّ القيصريّة هي الطريقة التي سيتمّ بواسطتها التضحية بحريّاتنا. وإذا كان للقارّات أن تلتحم وتتوحّد فعن طريق القوّة لا عن طريق الإقناع. وكما قامت الإمبراطوريّة الرومانيّة ستقوم الإمبراطوريّة القادمة بحدّ السيف، وسنساهم جميعًا في توطيد الأمر لها، ما دامت مخاوفنا نفسها تلحّ في طلبها.

لو اتّهمني أحدهم بالتخريف لأجبت بأنّ من الجائز حقًّا أنّي أستبق الأحداث بشيء من العجلة. إلاّ أنّ التواريخ ليست ذات أهميّة. لقد انتظر المسيحيّون الأُوَل نهايةَ العالم من لحظة إلى أخرى، ولم يخطئوا إلاّ ببضع آلاف من السنوات. وفي سياق مختلف من الانتظار من الممكن أن أخطئ أنا أيضًا. لكن ليس من الممكن أن نزنَ رؤية ولا أن نبرهن عليها: إن الرؤية التي أملكها عن الاستبداد القادم تفرض نفسَها عليَّ بجلاء حاسم بحيث يبدو لي من العار أن أبرهن على صحّتها. إنّها يقين يجمع بين الرعشة والمُسلّمة أنخرط فيه باندفاع المخلوج وبوثوق المهندس. كلاّ، لست هاذيًا ولا مخطئًا، وليس في وسعي حتى

أن أقول مثل كيتس[1] «إنّ الإحساس بالظلّ يغزوني»، فأنا على العكس، مغزوّ بنور شديد النصاعة لا يُطاق، لا يجعلني أتصوّر نهاية العالم فذاك هو الهذيان، بل يجعلني أتصوّر نهاية أسلوب حضارة وطريقة وجود. وكي أقتصر على الراهن وتحديدًا على أوروبّا. يبدو لي بأقصى الوضوح أن وحدتها لن تكون كما يظنّ الكثيرون نتيجة المعاهدات والمفاوضات بل نتيجة العنف ووفق القوانين التي تحكم نشأة الإمبراطوريّات. إنّها مجموعة من الأمم الهرمة تتخبّط في شتّى أحاسيس الغيرة والوساوس، ولابدّ لها من قبضة حديديّة تجبرها على التخلّي عن غيرتها وترغمها على التحرّر من وساوسها، فهي لن تفعل ذلك طواعيةً أبدًا. ما أن تخضع هذه الأمم وما أن تتّحد في الهوان والهزيمة حتى يمكنها أن تفرغ إلى عمل فوق أمميّ، أمام عين سيّدها الجديد الساهرة المقهقهة. ستتألّق تلك الأمم في العبوديّة وستعتني بعبوديّتها بلهفة وإتقان باذلةً من أجلها ما تبقى من فضلة عبقريّتها. دافعةً ثمنًا باهظا مقابل ألق عبوديّتها.

هكذا سيكون على أوروبّا المتقدّمة على زمانها أن تقترح كما هو شأنها دائمًا نموذجًا للعالم وأن تلمع في دورها كبطل وضحيّة. لقد تمثّلت مهمّتها في أن تستبق محن الآخرين، أن تتعذّب من أجلهم وقبلهم، أن تمنحهم اختلاجاتها الخاصّة في هيئة قوالب كي تكفيهم عبء اختراع اختلاجات شخصيّة خاصّة

---

(١) كيتس (John Keats): شاعر إنقليزي كبير (١٧٩٥-١٨٢١) يُعتبر من رموز الرومنطيقية، ولم تعرف تجربته التكريس إلاّ بعد وفاته.

بهم. كلّما تفانت من أجلهم وكلما تعذّبت واضطربت، ازدادوا رضًا بالعيش مثل طفيليّات تقتات من آلامها ومثل ورَثَةٍ لثوراتها. ولن يلبثوا أن يلتفتوا إليها في المستقبل أيضًا، إلى يوم تخور قواها، فلا يمكنها أن تورثهم إلاّ الفضلات.

أوديسّا الضغينة

نقضي الشطر الأكبر من ليلنا سهارى نتخيّل أنّنا نقطّع أوصال أعدائنا، ننتزع أعينهم وأحشاءهم، نعصر أوردتهم حتى تفرغ من كلّ دم، نسوّي أطرافهم بالأرض وندقّها بأقدامنا، مع الحرص من باب الرحمة على أن يواصلوا الانتفاع بهياكلهم العظميّة. ما أن نقوم بهذا التنازل حتى نهدأ وتخور قوانا فنخلد إلى النوم. راحة مستحقّة بعد حربنا الشعواء. ثمّ إنّنا نحتاج إلى استرجاع قوانا كي نتمكّن من إعادة الكرّة في الليلة الموالية، لاستئناف مهمّة يضعف عنها أيّ هرقل جزّار. حقًّا، ليس بالوظيفة المريحة أن يكون للمرء أعداء.

كان من الجائز لبرنامج ليالينا أن يكون أخفّ حمولة لو أتيح لنا في النهار أن نرخي العنان لنزعاتنا الشرّيرة. كي نبلغ التوازن فضلاً عن السعادة لابدّ لنا من أن نصفّي عددا مهمّا من أشباهنا، وأن نمارس المذابح يوميًّا على غرار أسلافنا الأباعد والمحظوظين. قد يعترض البعض بأنّ أسلافنا لم يكونوا محظوظين إلى هذا الحدّ، فالكثافة الديموغرافيّة لعصر الكهوف لم تكن تسمح لهم بذبح بعضهم بعضًا طيلة الوقت. حسنًا.

لكنّهم لم يكونوا مفتقرين إلى البدائل. كانوا أفضل حالاً منّا: كانوا يجهزون على أشباههم أيضًا حين يذهبون إلى الصيد في أيّ لحظة من لحظات اليوم، وحين ينقضّون على الحيوانات المتوحّشة. أُلفتُهم بالدم كانت تسهّل عليهم إشباع سُعارهم. لم يكونوا في حاجة إلى إخفاء نواياهم ولا إلى إرجاء خططهم الإجراميّة، على العكس منّا نحن المجبرين على كبح جماح شراستنا ومراقبتها، وتركها تتعذّب داخلنا وتئنّ، لاضطرارنا إلى تسويفها وإلى تأجيل ثاراتنا أو التخلّي عنها.

أن لا ننتقم يعني أن نُكبَّل في فكرة العفو، أن نغوص فيها ونتورّط، أن نصبح مدنّسين بالحقد المكبوت فينا. يصبح العدوّ الذي نعفو عنه مصدر وسواسنا واضطرابنا، خاصّة حين نقرّر أن نكفّ عن كراهيته. من ثمّ نحن لا نغفر له حقًّا إلاّ إذا ساهمنا في سقوطه أو واكبنا ذلك السقوط. أو إذا عرض علينا هو مشهد نهايته البشعة. أمّا الصلح التامّ معه فلا يكون إلاّ بتأمّل جثّته، وهي سعادة نادرة من الأفضل ألاّ نطمع فيها. فالعدوّ واقفٌ منتصر لا يسقط أبدًا، ميزته الأساسيّة أن يظلّ منتصبًا أمامنا يواجه سخريتنا الخجولة بازدرائه الوقح.

لا شيء يبعث على الغمّ أكثر من واجب التصدّي للقاع البدائيّ ولنداء الأصول. ممّا يتسبّب في كلّ ما يُسمَّى هُمومَ المتمدّن، المُكره على الابتسام، المُضطرّ إلى الأدب والمُداهنة، العاجز عن الإجهاز على خصومه بغير الكلام، اللاجئ إلى الافتراء والثلب بيأس المضطرّ إلى أن يقتل دون فعل، بفضل الكلمة وحدها، هذا الخنجر غير المرئيّ. إنّ للوحشيّة طرقًا

عديدة. وقد عوّضت المحادثةُ الغابة لتسمح لحيوانيّتنا بالتصرّف دون إلحاق خسائر مباشرة بأشباهنا. ولو حدث بفعل نزوة من نزواتِ إحدى القوى الشرّيرة أن فقدنا ملَكة الكلام لما أمِنَ أحدُنا على نفسه. إنّ الحاجة إلى الجريمة مطبوعة في دمنا، وقد نجحنا في جعلها تفصح عن نفسها من خلال أفكارنا، وهذه الحيلة البهلوانيّة هي الأمر الوحيد الذي جعل المجتمع ممكنًا ومستمرًّا. هل نستنتج من ذلك أنّنا نستطيع التغلّب على فسادنا الفطريّ وعلى مواهبنا الإجراميّة؟ لو فعلنا لكنّا مخطئين في تقدير الكلمة مبالغين في تمجيدها. الشراسة التي ورثناها وباتت تحت تصرّفنا لا تقبل الترويض بمثل هذه السهولة. وما دمنا لم نمض بها إلى النهاية ولم نستنفدها، فهي تظلّ محفوظة في أكثر زوايا أعماقنا سريّة، لا فكاك لنا منها البتّة. إنّ القاتل المُتحقّق يفكّر في جريمته ويستعدّ لها وينجزها، وعندئذ يتحرّر لفترةٍ من نزواته، على العكس من ذاك الذي لا يحجم عن القتل إلاّ لأنّه لا يستطيع أن يقتل على الرغم من رغبته في ذلك. إنّ القاتل غير المُتحقّق، الذي يضعف أمام المجزرة وتغلب عليه الشفقة، يرتكب ذهنيًّا ما لا يُحصى من الجرائم، ثمّ يعاني ويتعذّب أكثر بكثير من الآخر، بسبب ما يجرّ خلفه من ندم على كلّ الفظاعات التي لم يفلح في اقترافها. لا يختلف الأمر بالنسبة إلى من لا يجرؤ على الانتقام، فهو يسمّم أيّامه ويلعن تردّده وعمله اللاطبيعيّ المتمثّل في العفو. لا شكّ أنّ الانتقام ليس عذبًا دائمًا، فنحن ما أن ننجزه حتّى نشعر بأنّنا أقلّ من الضحيّة مستوى، أو نتخبّط في دقائق تبكيت الضمير. للانتقام إذنْ سمومه أيضًا على الرغم من أنّه أكثر مطابقة

لما نحن عليه، لِما نشعر به، للقانون الخاصّ بكلّ منّا، وهو كذلك سويٌّ أكثر من التسامح. جنّيات الجحيم اشتُهرن بأنّهنّ سابقات على الآلهة، بما في ذلك جوبيتر. ممّا يعني أسبقيّة الانتقام على الألوهيّة. وهو الحدس الرئيسيّ الذي تميّزت به الميثولوجيا القديمة.

إنّ أولئك الذين لم يردّوا على تحرّش أعدائهم بهم، إمّا عن عجز وإمّا لعدم توفّر الفرصة أو إبداءً لسخاء مسرحيّ، يحملون على وجوههم علامات غضبهم المكبوت، آثار الإهانة والخزي، العار الناشئ عن كونهم سامحوا. تنقلب عليهم الصفعات التي لم يوجّهوها وتنهال على وجوههم مشهّرةً بجبنهم. فإذا هم ذاهلون مهووسون، متقوقعون على خزيهم، مشحونون بحرقتهم، منشقّون على الآخرين وعلى أنفسهم، منطوون بقدر ما هم على أُهبة الانفجار، وكأنّهم يبذلون جهدًا فوق طاقة البشر لتجنّب صرَع يتهدّدهم. كلمّا كبرت لهفتهم كبرت حاجتهم إلى إخفائها، فإذا عجزوا عن ذلك انفجروا أخيرًا، لكن عبثًا وبغباء، فهم لا يجنون إلاّ ما يثير السخرية، شأنهم في ذلك شأن الذين يراكمون الكثير من الغيظ والصمت، حتى إذا حانت لحظة الحسم وواجهوا أعداءهم، أُسقِط في أيديهم ولم يكونوا جديرين بأعدائهم. هكذا يتضاعف غِلّهم نتيجة فشلهم، ومن شأن كلّ تجربة مماثلة مهما كانت تافهة أن لا تنتج إلاّ قدْرًا إضافيًا من الحقد.

لا يلينُ أحدُنا ولا يصبح طيّبًا إلاّ بتدمير أفضل ما في طبيعته البشريّة، وبإخضاع جسده إلى ضوابط الأنيميا وإخضاع عقله إلى ضوابط النسيان. أمّا إذا ظلّ محافظًا ولو على بصيص من الذاكرة

فإنّ العفو لن يكون بالنسبة إليه سوى صراع مع غرائزه وحرب على أناه. إنّ حقاراتنا هي التي تُدَوْزِنُنا مع أنفسنا، تضمن استمرارنا، تربطنا بماضينا، تنمّي قدراتنا على الاستذكار، كما أنّ مخيّلتنا لا تعمل إلاّ في انتظار مصائب الآخرين، في فورات الغثيان، في ذلك الاستعداد الذي إن لم يدفعنا إلى ارتكاب الفظاعات فهو على الأقلّ يدفعنا إلى الحلم بها. كيف لا يكون الأمر كذلك على كوكب يفيض فيه اللحم بوقاحة الكارثة؟ حيثما اتّجهنا اصطدمنا بالبشريّ، ذي الحضور الكلّي المقزّز، الذي لا نملك أمامه إلاّ الإحساس بالذهول والثورة في نوع من الانشداه الملتهب. في الماضي حين كان الفضاء أقلّ اكتظاظًا وأقلّ تلوّثًا بالبشر، أمكن لبعض الطوائف الدعوة إلى الخصاء وممارسته، بوحي من قُوًى لاشكّ في أنّها خيّرة. ومن المفارقات الجهنّمية أنّ هذه الطوائف اندثرت لحظةَ أصبح مذهبها مطلوبًا ومفيدًا أكثر من أيّ وقت مضى. فإذا نحن مهووسون بالإنجاب مثل كلّ ذي قائمتين، وقد زال عن وجوهنا الألق وفقدنا كلّ ميل تجاه بعضنا البعض، وبتنا محتاجين إلى أرض نصف مقفرة، مأهولة ببضعة آلاف من السكان، كي تستعيد ملامحُنا ألقها القديم. إنّ تكاثر أمثالنا يقود إلى الدّنس وإنّ واجب محبّتهم يوقع في الضحالة. وعلى الرغم من ذلك ليس من فكرة لنا إلاّ وهي ملوّثة بالبشريّ عطنةٌ بنتانته عاجزة عن الفكاك منه. أيّ حقيقة تحتملها أفكارنا وإلى أيّ كشف يمكنها أن ترتقي، إذا كانت هذه النتانة تخنق الذهن وتمنعه من التأمّل في غير الحيوان المؤذي العفن الذي يحاصره برائحته؟ على كلّ من كان أضعف من أن يعلن الحرب

على البشر، أن لا ينسى في لحظات ورعه، أن يصلّي من أجل مجيء طوفان ثانٍ أكثر راديكاليّةً من الأوّل.

المعرفة تقود الحبّ إلى الإفلاس: كلمّا ازدادت معرفتنا بأخصّ أسرارنا ازداد كرهنا لأشباهنا، تحديدًا لأنّهم يشبهوننا. نفقد أوهامنا في أنفسنا فنفقد أوهامنا في الآخرين. وما أن نكتشف فسادنا عن طريق الاستبطان حتى نحسّ بشرعيّة تعميمه على سائر الفانين الفاسدين أصلاً. نحن لا نخطئ حين ننسب إليهم كلّ الرذائل. الغريب أنّ أغلبهم يبدو عاجزا عن كشف رذائله أو متمنّعًا عن رصْدها لديه أو لدى الآخرين. ليس أسهل من إتيان الشرّ فالكلّ قادر عليه. وعلى العكس من ذلك فإنّ المجاهرة بإتيانه والاعتراف بحقيقته المحتومة إنجاز استثنائيّ. يستطيع أيّ عابر سبيل أن ينافس الشيطان من الناحية التطبيقيّة أمّا من الناحية النظريّة فالأمر مختلف تمامًا. ارتكاب الفظاعات وتصوّر الفظاعة فعلان لا يُختزل أحدهما في الآخر. ليس من نقطة مشتركة بين الكلبيّة المعيشة والكلبيّة التجريديّة. لنحترز من أولئك الذين ينخرطون في فلسفة مُطَمْئِنة، يؤمنون بالخير وينصبون له تمثالاً، والحال أنّهم ما كانوا لينجحوا في ذلك لو تفحّصوا أنفسهم بصدق واستكشفوا أعماقهم ومستنقعات وخَمهم. قد يتيح الفضول أو سوء الحظّ لقلّةٍ والحقّ يُقال، أن يغوصوا في قرارة كيانهم وأن يقفوا على حقيقة البشر. عندئذ يكفّون عن حبّه لأنّهم يكفّون عن حبّ أنفسهم، على الرغم من أنّهم، وتلك عقوبتهم، يظلّون مشدودين إلى أناهم أكثر من ذي قبل.

ما كنّا لنحافظ على إيماننا بأنفسنا وبالآخرين وما كنّا لنغفل عن الصبغة الوهميّة والعبثيّة لأيّ فعل مهما كان، لو لم تجعلنا الطبيعة غير نفّاذين إلى كنهنا، فريسةَ عمًى يُنجب العالم ويحكُمُه. ولو أخضعنا أنفسنا إلى تحرٍّ شامل لشلّنا التقزّز حاكمًا علينا بوجود عقيم. يبدو أن التناقض بين الفعل ومعرفة الذات قد غاب عن سقراط، وإلاّ هل كان يجرؤ كبيداغوجيّ وكشريك للبشر، على تبنّي شعار الوسيط على الرغم ممّا يفترضه ويدعو إليه من زهد؟

ما دمنا نملك إرادة ذاتيّة وتتمسّك بها (وهي التهمة التي وُجهت إلى إبليس) فإنّ الانتقام يظلّ ملزمًا، وضرورة عضويّة تحدّد كون التنوّع، و«الأنا»، ولا يمكن لمعناها أن يتماهى بمعنى الهويّة. لو صحّ أنّنا «نتنفّس في الواحد» كما قال أفلوطين[1]، فممّن ننتقم حيث تمّحي الفوارق كلّها ونتّحد في المبهم الذي تضيع فيه الملامح؟ الأصحّ أنّنا نتنفّس في المتعدّد، وأنّ عهدنا هو عهد «الأنا»، ولا خلاص بواسطة «الأنا». أن نكون يعنى أن نحسّ بالذات وأن نؤكّد عليها. من ثمّ عدم المعرفة (ونتيجته المباشرة: الانتقام)، مبدأ إظهار الأشباح، علّة سياحتنا في الأرض. كلما سعينا إلى انتزاعنا من ذاتنا ازددنا غوصًا فيها. وعلى الرغم من محاولتنا تفجيرها مرارا وتكرارًا فإنّها تبدو أكثر صمودًا كلّ مرّة. وكأنّ كلّ ما نبذله من جهد في سبيل تخريبها لا

---

(١) أفلوطين (Plotin): فيلسوف ولد في دلتا مصر وتوفيّ في روما (٢٠٥-٢٧٠). يُعتبر مؤسّس الأفلاطونية الجديدة.

يفعل غير مدّها بالمزيد من القوّة والصلابة. حتى تبلغ من الحيويّة والمكر ما يجعلها تنشرح في العذاب أكثر مما تنشرح في المُتعة. ذاك هو شأننا مع الذات وذاك هو بالأحرى شأننا مع الأفعال. لا نظنّ أنّنا تحرّرنا منها إلاّ ونحن مقيّدون إليها أكثر من أيّ وقت مضى. وهي تسيطر علينا وتُخضعنا حتى حين تنحطّ إلى مرتبة التظاهر بالفعل. ليس من أمر نهمّ به مدفوعين أو على مضض إلاّ وننتهي إلى الانخراط فيه كي نصبح عبيده ومخدوعيه. لا أحد يتحرّك دون أن يصبح تابعًا للكثرة، للمظاهر، للأنا. أن تفعل يعني أن تخلّ بالمُطلق.

لنقل دون لفّ ولا دوران، إنّ سلطان الفعل نابع من رذائلنا التي تملك احتمالَ وجود أكبر من ذاك الذي تملكه فضائلنا. ما أن نؤمن بقضيّة الحياة وخاصّة بقضيّة التاريخ حتى تكشف رذائلُنا عن فائدتها القصوى. ألسنا بفضلها نتشبّث بالأشياء ونظهر بمظهر لائق في هذه الأرض؟ إنّها ملازمة لشرطنا الإنساني ووحدها الدمى خالية منها. أن نرغب في مقاطعة رذائلنا يعني أن نتآمر على أنفسنا، أن نلقي أسلحتنا في ذروة المعركة، أن نفقد الاعتبار في نظر الآخر أو أن نظلّ عاطلين إلى الأبد. يستحقّ البخيل أن يُحسد لا على ماله بل أساسًا على بخله، كنزه الحقيقيّ. لا تفعل الرذيلة شيئًا دون رويّة، وهي لا تثبّت الفرد في قطاع من الواقع ولا تؤصّله فيه، إلاّ لتشغله وتعمّقه وتمنحه مبرّرا لوجوده وتخرجه من البوار. إنّ القيمة العمليّة لمختلف مظاهر الهوس والاختلال والشذوذ لم تعد في حاجة إلى برهان. ومادمنا قابعين في هذا العالم تحديدًا، في هذا الحاضر حيث تتبارز الإرادات

وتعيث الرغبة في التفوّق، فإنّ رذيلة صغيرة تتغلّب من حيث النجاعة على أكبر الفضائل. إنّ البعد السياسيّ للبشر (وأعني بالسياسيّ تتويج البيولوجيّ) هو الذي يحافظ على سلطان الأفعال، سلطان الدناءة الفعّالة. أن نعرف أنفسنا يعني أن نتعرّف على الدافع الدنيء الذي يحدّد حركاتنا، الدافع المجحود المحفور في جوهرنا، حصيلة بؤسنا المعلن والخفيّ الذي يقوم عليه مردودنا. كلّ ما ينبثق من قيعان طبيعتنا يتوهّج بالقوّة، كلّ ما يأتي من أسفل يستنهض. إنّنا ننتج ونجتهد دائمًا بدافع الغيرة أو الجشع أفضل ممّا نفعل بدافع النبل أو النزاهة. بينما لا يتربّص العقم إلاّ بأولئك الذين لا يتنازلون إلى الاعتراف بعيوبهم ولا يقومون برعايتها. أيًا كان المجال الذي يشغلنا، نحن لا نتميّز فيه إلاّ إذا عرفنا كيف ننمّي الجانب الجشع من طبيعتنا، وكيف ندلّل ميولنا نحو التعصّب واللاتسامح والنقمة. لا شيء يثير الريبة أكثر من الخصوبة. إذا كنتم تبحثون عن النقاء وإذا كانت لديكم أيّ مزاعم في بعض الشفافيّة الباطنيّة، فما عليكم إلاّ أن تتخلوّا فورًا عن مواهبكم، أن تخرجوا من مجال الأفعال، أن تتموقعوا خارج ما هو بشريّ، أن تزهدوا، وفق العبارة الدينية، في «محادثة المخلوقات».

ليس من شأن المواهب الكبيرة أن تلغي النقائص الكبيرة، بل هي على العكس تستدعيها وتدعمها. علينا أن نصدّق القدّيسين حين يتّهمون أنفسهم بهذا الذنب أو ذاك. إنّ اهتمامهم نفسه بآلام الآخرين يشهد عليهم. هل شفقتهم، وهل الشفقة عمومًا، سوى *رذيلة الطيبة*؟ إنّها تستمد فعاليّتها من المبدأ الشرّير

الذي تتضمّنه، لذلك هي تبتهج لمحن الآخرين، تتلّذذ بها، تستمتع بسمّها، تنقضّ على كلّ شرّ تراه أو تتوقّعه، تحلم بالجحيم كأنّه الأرض الموعودة، تُطالب به ولا تستطيع الاستغناء عنه، وإذا لم تقم بالتدمير بنفسها فهي تستغلّ كلّ ما يُدمِّر. إنّها انحراف الطيبة إلى الحدّ الأقصى الذي يصبح نفيًا لها، لدى القديّسين أكثر مما هو لدينا. للاقتناع بذلك يكفي أن نطّلع على حياتهم وأن نمعن النظر في النهم الذي ينقضّون به على آثامنا، في الحنين الذي يشعرون به تجاه السقوط الخاطف أو الندم اللانهائيّ، في ضيقهم بتفاهة فسْقنا وحسرتهم على عدم تمكّنهم من أن يتعذّبوا أكثر في سبيل التكفير عنّا.

قد يبلغ أحدُنا أعلى الدرجات لكنّه يظلّ سجين طبيعته، حبيس سقوطه الأصليّ. إنّ أصحاب المشاريع العظيمة أو، ببساطة، ذوي المواهب، ليسوا سوى غيلان رائعة ومريعة، تبدو في هيئة من يتأمّل جرمًا مرعبًا، بينما هي في الحقيقة تهيّء لعملها. . .إنّها تشتغل عليه بمكر ككلّ الأشرار: أليس عليها أن تُجْهز على كلّ من يشاركها الدرب نفسه؟ نحن لا نتحرّك ولا ننتج إلاّ من أجل سحق البشر أو بشرٍ بعينه، من أجل الإطاحة بالمنافسين أو بالمنافس الرئيس. تتحارب العقول أيًّا كان مستواها ولا تجد راحتها واستقرارها إلاّ في التحدّي. القدّيسون أنفسهم يغار بعضهم من بعض ويقصي بعضهم بعضًا، تمامًا كالآلهة، والدليل على ذلك تلك المشاجرات الدائمة المتفشيّة في كلّ أولمب. كلّ من يقترب من مجال نشاطنا أو من المسألة التي تهمّنا يهدّد خصوصيّتنا وميزاتنا وسلامة وجودنا ويسلبنا أوهامنا

وحظوظنا. من ثمّ فإنّ واجب الإطاحة به والإجهاز عليه أو على الأقلّ إذلاله يتّخذ هيئة المهمّة إن لم نقل القدر المحتوم. وحده الزاهد المنقطع عن أيّ حركة ينال رضانا، وحتى هو لا مجال للارتقاء به إلى مرتبة القدوة، فالحكيم *المُكرّس* مثير ومبرّر للحسد. حتى الخامل، إذا تميّز بخموله وإذا لمع فيه، لا يأمن أن يصبح عرضة للتشنيع بسبب لفته الأنظار. الأفضل امّحاء محسوب بدقّة، ولكن أنّى لأحدٍ أن يقدر عليه.

لا يتحقّق لنا المجد إلاّ على حساب الآخرين، أولئك الذين كانوا يطمحون إليه أيضًا، بل لا شيء يتحقّق لأحد، حتّى الصيت، إلاّ مقابل ما لا يُحصى من المظالم. إنّ كلّ من خرج من عالم النكرات أو هو يجهد للخروج منه، لَبُرهانٌ في حدّ ذاته على أنّه تخلّص في حياته من كلّ وازع وهزم ضميره هذا إذا كان له ذات يوم ضمير. التخلّي عن الصيت حكم على النفس بالعطالة، والتمسّك به خسّة. هل علينا أن نصلّي أم أن نؤلّف صلوات؟ أن نكون أم أن نعبّر؟ الأكيد أنّ مبدأ التوسّع الملازم لطبيعتنا يجعلنا نرى في مزايا الآخرين اعتداءً على مزايانا، شبيهًا باستفزاز متواصل. ما أن نُمنع من المجد أو نعجز عنه حتى نُلقيَ المسؤوليّةَ على من وصلوا إليه، لأنّهم لم يصلوا إليه في نظرنا إلاّ بعد أن سرقوه منّا. إنّه حقّنا وملكُنا ولولا دسائس هؤلاء الغاصبين لكان لنا. «السرقة ماثلةٌ في المجْد أكثر ممّا هي ماثلةٌ في الملْكيّة». تلك هي العبارة التي يكرّرها الساخط، وإلى حدٍّ مَا، تلك هي العبارة التي نكرّرها جميعًا. ثمّةَ لذّةٌ نادرة في أن نكون خاملي الذكر أو غير مفهومين. لكن، أليس في وسعنا لو

أمعنّا النظر، أن نجد هذا النوع من اللذّة مرادفًا للافتخار بانتصارنا على الغرور وعلى مظاهر التشريف، مرادفًا لرغبتنا في صيتٍ غير عاديّ، شبيه بشهرة من غير جمهور؟ وتلك في النهاية ذروة الجوع إلى المجد وشكلُهُ الأرقى.

لا مبالغةَ في هذه الكلمة: فالأمر متعلّقٌ حقًّا بـ جوعٍ يضرب بجذوره في حواسّنا ويستجيب إلى ضرورة فيزيولوجيّة، إلى نداء قادم من أحشائنا. نداء لن نفلح في الإشاحة عنه والانتصار عليه إلاّ إذا تأمّلنا في تفاهتنا وتيقنّا منها، مع الحرص على عدم الخروج من ذلك بأيّ لذّة، فالتيقّن من التفاهة إذا لم نحترس منه بما يكفي، قد يقود هو أيضًا إلى الزهو والرضا على الذات: نحن لا نتملّى من عدمنا الخاصّ ولا نقضي معه وقتًا طويلاً دون أن نستمتع به بعض الشيء... ثمّة بعضُ السعادة في التكالب على التشهير بهشاشة السعادة. كذلك الأمرُ حين نجاهر باحتقار المجد ونحن على علمٍ برغبتنا فيه، بل لعلّنا لا نرغب فيه أكثر ممّا نفعل لحظةَ مجاهرتنا ببطلانه. رغبة مقيتةٌ دو شكّ، لكنّها ملازمة لبنيتنا، لا تُستأصل منها إلاّ إذا تركنا الجسد والروح يتحجّران، ونافسْنا غفْلةَ المعدنيّ، ونسينا بعد ذلك الآخرين وأجليناهم عن وعينا، إذ أنّ من شأن مجرّد حضورهم المتوهّج المزهوّ، أن يوقظ فينا ملاك الشرّ الذي يأمرنا بأن نكنُس منهم الأرض وأن نخرج من عتمتنا على حساب توهّجهم.

نحن نحقد على كلّ من «اختار» أن يعيش في عصرنا، أن يَجري إلى جانبنا فيعوق خطانا أو يتركنا إلى الخلف. بعبارة أوضح: كلّ معاصر لنا هو بغيظ في نظرنا. نُسلّم بالتفوّق لميتٍ

لكنّنا لا نسلّم أبدًا بالتفوّق لأحد من الأحياء، قد يكون وجوده في حدّ ذاته بمثابة اللوم والتوبيخ والدعوة إلى الوقوع في دوّامة التواضع. لا نشكّ في أنّ أشباهًا لنا كثيرين يتفوّقون علينا، وهي فكرة تقوم مقام البداهة لا نستطيع تحمّلها، لذلك نسعى إلى مراوغتها بأن ندّعي لأنفسنا كلّ المواهب، عن طريق خديعة غريزيّة أو يائسة، أو بأن ننسب إلينا وحدنا ميزة الفرادة. نحن نختنق بالقرب من أقراننا وقدواتنا وكم نشعر بالارتياح أمام قبورهم. المريد نفسه لا يتنفّس ولا يتحرّر إلاّ بموت معلّمه. ليس بيننا أحد مهما كان إلاّ وهو يتمنّى خراب من يجعلون نجمه باهتًا في ضوء مواهبهم أو أعمالهم أو منجزاتهم، متشوّفًا بلهفة وشوق إلى أنفاسهم الأخيرة. لا تعلو قامة أحدهم على قامتنا في مجال نشاطنا حتى نرى في ذلك سببا كافيًا كي نتمنى الخلاص منه، إذ كيف يمكننا أن نغفر له ما نشعر به تجاهه من إعجاب وما نكنّه له من إجلال سريّ ومؤلم؟ لينسحب، ليبتعد، ليمت أخيرًا كي يتاح لنا إجلاله دون تمزّق ولا احتراز، كي ينتهي عذابنا.

لو كان متمتّعًا بأبسط قدر من الذكاء لما شكر لنا إعجابنا به، بل لآخذنا عليه ولرأى فيه انتحالاً ولأنكرنا بتقزّز أو شفقة. أمّا وهو مزهوّ بنفسه عديم الخبرة بما يخلّفه الإعجاب من عذاب وبما يثيره في أنفسنا من مشاعر متضاربة، فإنّه لا يتصوّر البتّة أنّنا لم نرفع من شأنه إلاّ وضعنا من شأننا، وأنّ عليه أن يدفع يومًا ثمن ضعَتِنا، فهل يمكننا أن ننسى أبدًا أيّ ضربة قاتلة، دون قصد منه نعترف بذلك، وجّهها إلى وهمنا اللذيذ بفرادتنا وقيمتنا؟ لقد تهوّر باقتراف الاستسلام إلى أن يكون محلّ إعجاب لفترة أطول

ممّا ينبغي، وعليه بعد ذلك أن يتحمّل النتائج. بقرار من سأَمِنا ها هو يتحوّل من إله حقيقيّ إلى إله مزيّف، عليه أن يكفّر عن انشغالنا به عن غير وجه حقّ طيلة الوقت الفائت. بل لعلّنا لم نعامله بما يشبه العبادة إلاّ أملاً في الأخذ بثأرنا منه ذات يوم. قد نكون من محبّي السجود لكنّنا أكثر حبّا للكفر بكلّ من سجدنا لهم. أفعالُ الهدم تبعث على النشوة وتمنح الطاقة، من ثمّ إلحاحُ المشاعر الدنيئة، ونجاحُها العمليّ الأكيد. الحسدُ هو الذي يحوّل الجبان إلى مغامر، والسِقْطَ إلى نمر، فيلهبُ الأعصاب بالسياط ويضرم النار في الدماء ويفشي في الجسد هزّة تمنعه من التهالك، ويمنح الوجه الأكثر عاديةً تعبيرًا من الحماسة المكثّفة، بدونه ما كان لحدثٍ، بل ما كان للعالم أن يكون. الحسد هو الذي جعل الإنسان ممكنًا، سمح له بأن يكون له صيت، أن يشقّ طريقه نحو العظمة *بواسطة السقوط*، بواسطة تلك الانتفاضة ضدّ مجد النكرات الذي يَعِدُ به الفردوس، والذي ما كان له أن يتأقلم معه أكثر ممّا فعل الملاك الملعون، ملهمُه وقدوته. لا شيء يتنفّس أو يتحرّك إلاّ وهو شهادة على الدنس البدئيّ. لقد توثّقت عُرانا إلى الأبد بهيجان إبليس، سيّد الزمان الذي يتميّز بالكاد عن الربّ، بما أنّه ليس سوى وجهه المرئيّ، وهكذا بتنا فريسةً لملاك العصيان ذاك، الذي جعلنا نؤدّي دورنا كأحياء بتأليب بعضنا على بعض، في معركة مؤسفة دون شكّ، لكنّها مُقوّية: إذ أنّنا نخرج من فتورنا، وتنبعث فينا الحياة، كلّما تغلّبنا على نزعات نبلنا، ووَعَيْنا بدورنا كمخرّبين.

إنّ الإعجاب على العكس من ذلك، ولفرط ما يهرئ

جوهرنا، يضايقنا ويحبطنا بطول المدّة، لذلك نحن سرعان ما ننقلب على موضوع *إعجابنا*، وقد بات مذنبًا في نظرنا بإجبارنا على معاناة الارتفاع إلى مستواه. وعليه أن لا يَعْجَبَ بعد ذلك إذا تحوّل اندفاعنا نحوه إلى عزوف عنه، وإذا قمنا بين الحين والآخر بمراجعة حماستنا تجاهه. إنّها غريزة البقاء تعيدنا إلى الجادّة وتذكّرنا بواجبنا تجاه أنفسنا، وتجبرنا على أن نثوب إلى رشدنا ونستعيد زمامنا. نحن لا نكفّ عن احترام أو مديح فلان أو علاّن لعلّة في مزاياهما، بل لأنّنا لا نستطيع أن نرتفع إلاّ على حسابهما. دون أن تنضب تمامًا، تمرّ قدرتنا على الإعجاب بأزمة نستسلم خلالها إلى سحر شياطين الجحود وهيجانهم، فنحصي معبوداتنا لنكفر بها ونحطّمها واحدًا بعد الآخر، وإنّ سُعار محاربِ الأيقونات هذا قد يكون جديرًا بالاحتقار في حدّ ذاته، دون أن يمنعه ذلك من أن يكون العنصر الأساس في إطلاق ملَكاتنا من عقالها.

تمثّل الضغينة بالنسبة إلى الإلهام دافعًا مبتذلا، وبالتالي فعّالا، لذلك فهي غالبةٌ على الفنّ الذي لا يستطيع الاستغناء عنها، شأنُه في ذلك شأن الفلسفة أيضًا: أن تفكّر يعني أن تثأر بمكر، أن تعرف كيف تخفي مشاعرك السوداء وكيف تسدل حجابًا على نزعاتك الشرّيرة. لو حكمنا على أي نظام فلسفيّ انطلاقًا ممّا يقصيه ويرفضه، لرأيناه يذكّرنا بعمليّة تصفية حساب منجزة ببراعة. ليس الفلاسفة بالرحماء، بل هم قُساةٌ مثل الشعراء ومثل كلّ من لديه شيء يقوله. وإذا كان الكيّسون والدافئون لا يتركون أثرًا فليس ذلك لنقصٍ في العمق أو النظر الثاقب، بل

لنقص في العدوانيّة، على الرغم من أنّها لا تتطلّب حيويّة كاملة. إنّ المفكّر في الأغلب خائر القوى كسيح، لكنّه يزداد فتكًا بقدر ما يشعر بدونيّته البيولوجيّة وبقدر ما يتعذّب بها. كلمّا لفظته الحياة أصرّ على محاولة التحكّم فيها والتفوّق عليها، وإن دون جدوى. إنّه بائس بما يكفي كي يسعى نحو السعادة، مغرور أكثر ممّا ينبغي كي يظفر بها أو يستسلم لها، واقعيّ ولاواقعيّ في الوقت نفسه، مخيف وعاجز، يذكّر بخليط من الوحش والشبح، أو بثائر يعيش عن طريق الاستعارة.

إن من شأن الضغينة المتماسكة المتيقّظة أن تمثّل لوحدها بنية الفرد. أمّا ضعف الشخصيّة فهو غالبًا ما ينشأ عن ذاكرة ضعيفة. إنّ عدم نسيان الإهانة سرّ من أسرار النجاح، وهو فنّ يمتلكه أصحاب القناعات القويّة دون استثناء، لأنّ كلّ قناعة تتكوّن أساسًا من البغض، ثمّ في درجة ثانية من الحبّ. أمّا التردّد فهو على العكس، نصيبُ ذاك العاجز تحديدًا عن أن يحبّ أو أن يكره، فإذا هو لا يستطيع اختيار شيء، ولا حتى تجاذباته. إذا أراد أن يفرض نفسَه وأن يهزّ خموله وأن يلعب دورًا، فعليه أن يخترع لنفسه أعداء وأن يتمسّك بهم. عليه أن يوقظ وحشيّته النائمة أو أن يسترجع ذكرى إهانات تعجّل إهمالها. نحتاج إلى قدر أدنى من الوضاعة كي نخطو خطوة واحدة إلى الأمام، وربّما كي نبقى على قيد الحياة. على كلّ منّا أن لا يُهمل ثروته من الدناءة إذا كان حريصًا على «الاستمرار في الكينونة». الضغينة تحافظ علينا. وإذا عرفنا أيضًا كيف نتعهّدها وكيف نعتني بها فإنّنا نتجنّب بواسطتها أن نكون ذوي شخصيّة واهنة وحضور باهت.

بل لعلّ من واجبنا أن نشعر بها حتى تجاه الأشياء، فأيّ خطّة أفضل من ذلك لننسبك من جديد في صلتنا بها، لننفتح على الواقع ونستفيد من النزول إليه. إنّ الإحساس النقيّ خالٍ من أيّ شحنة حيويّة، وهو من ثمّ تناقضٌ في المكوّنات، استحالة، تخييل. لذلك فهو غير موجود أصلاً، حتى إن تمّ البحث عنه في الدين باعتباره مجال ازدهار هذا النوع من الأحاسيس. لا يمكن لمن يسمح لنفسه بالوجود وخاصّة بالصلاة، أن لا يكون له بعض التنازل للشيطان. في أغلب الأحيان نحن نرتبط بالله كي ننتقم من الحياة، كي نعاقبها، كي نخبرها بأنّنا نستطيع الاستغناء عنها، وأنّنا وجدنا ما هو أفضل منها. كما أننا نتعلّق بالله رعبًا من البشر، في نوع من الاقتصاص منهم، رغبةً في جعلهم يفهمون أننا وقد وجدنا حظوة لدى غيرهم، فإنّ صحبتهم لم تعد ضروريّة لنا، وأننا إذا كنّا نزحف أمامه فكي لا نضطرّ إلى الزحف أمامهم. دون هذا العنصر الوضيع، الملوّث، الماكر، يفقد إيماننا قوّته بل قد لا تظهر حتى خطوطه الأولى.

إنّ من وهميّة الأحاسيس النقيّة، أن يبدو المرضى وحدهم مُكلّفين بكشفها لنا، وكأنّ تلك هي مهمّتهم ومعنى محنتهم. وهو أمر طبيعيّ جدًّا ما دام في المرضى تتكثّف وتتفاقم عيوبُ جنسنا. لقد اغترب المرض عبر العديد من الأنواع وخاض صراعات بقدْرٍ يزيد أو ينقص من النجاح كي يسمها بميسمه، ثمّ بعد أن أرهقه الترحال لاشكّ أنّه تاق إلى الراحة فبحث عمّن يستطيع إلزامه بتفوّقه بسلام، دون أن يبدي أيّ صدّ لنزواته واستبداده، وعمّن يستطيع التعويل عليه حقًّا، فتلمّس وجرّب

يمنة ويسرة وأخفق أكثر من مرّة ثمّ عثر أخيرا على البشر، هذا إن لم يكن قد صَنَعَه. هكذا نحن، كلّنا مرضى، بعضنا افتراضيّون وهي تلك الكتلة من الأصحّاء المتكوّنة من البشريّة الباردة المسالمة، وبعضنا يحمل سمات المرض حقًّا، يصحّ فينا وصف مرضى، أقليّة كلبيّة متحمّسة. صنفان قريبان في الظاهر شديدا التناقض في الواقع، إذ الفجوة كبيرة تلك التي تفصل بين الألم الممكن والألم الراهن.

وعوضًا عن أن نحمّل أنفسنا المسؤوليّة، وعوضًا عن أن نحاسب هشاشة جبلّتنا، فإنّنا نحمّل الآخرين مسؤوليّة وضعنا وتبعات أدنى توعّك يصيبنا وإن كان صداعًا نصفيًّا، ونتّهمهم بأنّنا ندفع ثمن عافيتهم، وأنّنا طريحو الفراش كي يستطيعوا هم أن يتحرّكوا وأن يرتعوا على كيفهم. وكم يلذّ لنا أن نرى مرضنا ينتشر ويمتدّ إلى جوارنا، ولو أمكن إلى البشريّة جمعاء. وحين تخيب توقّعاتنا نحنق على الجميع قريبين وبعيدين، ونضمر لهم مشاعر فتّاكة، متمنّين أن يتهدّدهم ما هو أفدح ممّا يتهدّدنا، وأن تدقّ ساعة الاحتضار، معلنة عن أروع إبادة جماعيّة لكلّ الأحياء. وحدها الآلام الكبيرة، الآلام العصيّة على النسيان، تبعث على الانفكاك من العالم، أمّا الآلام الأخرى، العاديّة، وهي أخلاقيًّا الأسوأ، فإنّها تجعلنا عبيد العالم، لأنّها تثير ما في قاع الروح. علينا الاحتراز من المرضى، فهم يملكون شخصيّات قوية، ويتقنون استغلال وشحذ ضغينتهم. أحدهم قرّر ذات يوم أن لا يصافح معافًى، ثمّ سرعان ما اكتشف أنّ كثيرين ممّن توهّم أنّهم يتمتّعون بالصحّة هم في الحقيقة خالون منها. فلماذا إذنْ يتّخذ له

أعداء بناءً على شكوك متعجّلة. ثمّ إنّه بكلّ يقين، أعقل من الآخرين وأيقظ ضميرًا ممّا اعتاد الأوباش الذين ينتمي إليهم، عصابة المحرومين الجشعين نُذُر السوء الذين يجدر عزلهم لأنّهم يريدون تقويض كلّ شيء لفرض قوانينهم. الأفضل أن نعهد بالأمور إلى العاديّين المستعدّين وحدهم لترك الأمور على حالها: لا شأن لهؤلاء بالماضي ولا بالمستقبل، لذلك هم يكتفون بالحاضر ويتّخذون لهم فيه موقعًا بعيدًا عن أيّ حسرات أو أمنيات. ولكن ما أن تختلّ الصحّة حتّى لا حُلْمَ إلاّ بالجنّة أو بالجحيم، أي *بالإصلاح* في آخر التحليل: نريد إصلاح ما لا صلاح له، تحسين المجتمع أو تدميره، المجتمع الذي نكفّ عن تحمّله لأنّنا نكفّ عن تحمّل أنفسنا. إنّ الرجل المتألّم خطرٌ عامّ، مختلٌّ تزداد خطورته بقدر ما يُضطرّ في أغلب الأحيان إلى إخفاء ألمه، مصدر طاقته. لا مجال للمطالبة بدور أو للعب دور على هذه الأرض دون دعم من بعض الإعاقات، كما أنّه ليس من حيويّة إلاّ وهي علامة على بؤس فيزيولوجيّ أو دمار باطنيّ. حين نعرف التوازن نكفّ عن كلّ حماسة، ونفقد التعلّق حتى بالحياة، لأنّنا نكون الحياة: ويكفي أن يختلّ التوازن فإذا نحن لا نتماهى بالأشياء بل لا نفكّر إلاّ في تقويضها أو إعادة عجنها. يتأتّى الغرور من توتّر الوعي أو إجهاده، من استحالة الوجود ببراءة. ولمّا لم يكن المرضى أبرياء البتّة، فإنّهم يُحِلّون الفكرةَ المزيّفة التي يملكونها عنه، محلّ المُعطى، ممّا يجعل إدراكهم وحتى ردود أفعالهم جزءًا من نظام وساوس قهريّة، يبلغ من تسلّطها أنّهم لا يستطيعون منع أنفسهم من تقنينها وفرضها على

غيرهم، وكأنّهم مشرّعون مخادعون غضوبون، يتفانون في جعل أمراضهم إجباريّة كي تصيب كلّ من تسوّل له نفسه عدم اقتسامها معهم. إذا كان الأصحّاء يبدون ألْيَنَ جانبًا وإذا لم يكن لهم أيّ دافع كي يكونوا صارمين فلأنّهم يجهلون، هم، ما تتضمّنه الإهانة من طاقات هدّامة. أمّا مَن خَبِرَها فهو لا يمكن أن ينساها، ولن يعرف الراحة قبل أن يمرّرها في عمل كفيل بتأبيد غمراتها. أن تبدع يعني أن تُورِث عذاباتك، أن ترغب في جعل الآخرين يغوصون فيها، يتحمّلونها، يتشرّبونها ويعيشونها من جديد. يصحّ هذا في شأن قصيدة كما يصحّ في شأن الكوسموس. دون فرضيّة ربّ محموم، مُلاحق، فريسة للتشنّج والصرع، لا يسعنا تفسير هذا الكون الذي يحمل في كلّ شيء علامات غضب بدئيّ. هذا الربّ نفسه لا ننتبه إلى جوهره إلاّ حين نقع نحن أيضًا فريسة رجّة مثل تلك التي شعر بها دون شكّ لحظةَ كان يمسك بخناق الشواش[١]. نفكّر فيه بكلّ ما يتقزّز فينا من الشكل أو من الرأي السديد، بلُبسنا وهذياننا، نصل إليه عن طريق توسّلات تجعلنا نتشتّت فيه وتجعله يتشتّت فينا، لأنّه يقترب منّا كلمّا تحطّم شيء فينا، وكلّما تبارينا نحن أيضًا على طريقتنا مع الشواش. ثيولوجيا مُختصرة؟ كيف لا نؤاخذ صاحبها حين نتأملّ هذه الخليقة غير المُتقنة، بل كيف نظنّه بارعًا أو حتى ماهرًا؟ أيّ ربّ آخر كان حريًّا بإظهار قدر أكبر من الكفاءة أو التوازن: حيثما ولّينا الوجه لا نرى إلاّ أخطاء وفسادًا. يستحيل

---

(١) الشواش (Chaos): فضلنا هذه الترجمة على الكاووس أو الخوى.

علينا أن نغفر له لكن يستحيل علينا أيضًا أن لا نفهمه. ونحن نفهمه بكلّ ما هو فينا شذرات، وغير مكتمل، وسيّء الولادة. إنّ عمله يحمل علامات الوقتيّ والحال أنّ الوقت لم يكن هو ما ينقصه للقيام به على أكمل وجه. كان، لسوء حظّنا وبشكل غير قابل للتفسير، على عجلة من أمره. وانطلاقًا من جحود مشروع، ها نحن نعمل، بوصفنا خبيرين في الإبداع المضادّ، على تدمير ما بناه، وعلى إفساد أثره الفاسد أصلاً. كان من الحكمة واللياقة دون شكّ، أن نترك هذا الأثر كما هو، أن لا نجعل منه ومن قصور صاحبه موضوع انتقامنا. إلاّ أنّنا وقد أورثَنا عيوبَه، لا نملك أن نعامله بمراعاة. وإذا كنّا في نهاية الأمر نفضّله على البشر، فهذا لا يعني أنّ نجنّبه شراستنا. بل لعلّنا لم ننشئه إلاّ لتبرير انتفاضاتنا وتجديدها، ومنحها موضوعًا جديرًا بها، ومنعها من أن تندثر وتنحطّ، عن طريق إعلائها بفضل الإفراط المنعش في التدنيس، كردّ على الإغواء وعلى التثبيط. نحن لا نَتخلُص أبدًا من الله. أن نعامله من موقع الندّ للندّ، كعدوّ، هي وقاحةٌ تدعمُ، وتحفّز، وكم هم مدعاة للرثاء أولئك الذين لم يعد الله يثيرهم. وكم هو من حسن الطالع، من ناحية أخرى، أن يكون في وسعنا دون حرج أن نحمّله مسؤوليّة كلّ مصائبنا، أن نثقل كاهله ونلعنه، وأن لا نراعيه في أيّ لحظة، ولا حتى في صلواتنا.

الضغينة التي لا نحتكرها، يعاني منها هو أيضًا (يشهد بذلك أكثر من كتاب مقدّس)، وذلك لأنّ الوحدة حتى حين تكون مطلقة، لا تحصّن منها البتّة. وإذا لم يكن من الجيّد أن يكون

أحدنا وحيدًا، حتى إذا كان إلهًا، فهذا يعني باختصار: لِنَخْلُق العالمَ بحيث يكون لنا دائمًا من نهجم عليه، من نصبّ عليه جام قريحتنا ونمارس عليه تنكيدنا. وحين يتبخّر العالم، يبقى لدينا، آلهة كنّا أم بشرًا، ذلك الصنف الماكر من الانتقام: الانتقام من الذات، ذلك الشغل الشاغل، الذي لا يدمَّر تمامًا بما أنّه يدلّ على أنّنا مازلنا على عهدٍ مع الحياة، والذي ننخرط فيه تحديدًا عن طريق العذاب الذي نفرضه علينا. ليس من تقاليدنا إطلاق صرخة الهوزانا[١]. يمكننا بسهولة أن نتصوّر المبدأ الإلهيّ والمبدأ الشيطانيّ فهما متساويان في الدنس وإن بطريقتين مختلفتين. أمّا الملائكة فهم على العكس من ذلك يفلتون من قبضتنا. وإذا كنّا نعجز عن تصوّرهم، وإذا كانوا يُعجزون خيالنا، فلأنّهم على العكس من الله ومن الشيطان ومنّا جميعًا، وحدهم، حين لا يكونون ملائكة الخراب، يتألّقون ويزدهرون دون حاجة إلى دافع الضغينة، وهل ينبغي الإضافة، دون دافع الإطراء الذي لا يمكن الاستغناء عنه لبهائم كثيرة الأعباء مثلنا. نحن محتاجون إلى رأي الآخرين فينا كي نعمل، نطلب مدائحهم بل نتوسّلها، ونطارد بلا رحمة كلّ الذين يطلقون علينا أحكامًا متردّدة او حتى عادلة، ولو كانت لدينا الوسائل، لأجبرناهم على تقييمنا بشكل مبالغ فيه، حدّ إثارة الهزء، دونما صلة بحقيقة قدراتنا أو منجزاتنا. يصبح المديح المعتدل ظلمًا والموضوعية تحدّيًا

(١) صرخة الهوزانا (Hosanna): اصلها عبري (هوشعنا) وتعني «يا رب خلّصنا».

والاحتراز شتيمة، فماذا ينتظر الكون كي يتمرّغ عند أقدامنا؟ ما نبحث عنه ونطلبه في عيون الآخرين هو التعبير الذليل والافتتان المعلن بحركاتنا وهذياناتنا، الاعتراف بعاطفة جيّاشة لا لبس فيها تجاهنا، الانخطاف أمام عدمنا. المتملّقُ واعظُ انتهازيّ يجمع بين عالم النفس والمتطفّل، لذلك هو يعرف ضعفنا ويستغلّه بلا هوادة. أمّا نحن فنبلغ من الانحطاط حدّ تصديق مظاهر الإعجاب بنا مهما كانت مفرطة، واستقبال المزيّف والمصطنع منها دون أن يحمرّ لنا وجه، لأنّنا نفضّل بيانات الكذب على مرافعات الصمت. يمتزج التملّق بفيزيولوجيّتنا، بأحشائنا، فيؤثّر في غددنا ويخالط إفرازاتنا وينشّطها، ويستهدف إضافة إلى ذلك مشاعرنا الأكثر دناءة، أي الأعمق والأكثر ارتباطًا بطبيعتنا، باعثًا فينا نشوة مريبة نقف أمامها مشدوهين. للتقريع أيضًا نفس الأثر فينا، وإن كان أكثر إيلامًا، لأنّه يمسّ من أسس كياننا ويرجّها. ولمّا لم يكن من المسموح لأحد أن يمسّ من تلك الأسس دون أن يتعرض إلى العقاب، فإنّنا سرعان ما نردّ إمّا بالضرب فورًا، وإمّا بالتفكير في إعداد بعض السموم، الأمر الذي يمكن اعتباره ردًّا مطبوخًا على نار هادئة. عدم الردّ يتطلّب تحوّلاً كاملاً، تغييرًا شاملاً لا لأحوالنا فحسب بل لأعضائنا نفسها. ولمّا لم تكن هذه العمليّة وشيكة فإنّنا سرعان ما نرضخ عن طيب خاطر إلى أحابيل التملّق وسلطان الضغينة.

أن نكبح الرغبة في الانتقام يعني أن نطلب من الزمن التوقّف، أن نسحب من الأحداث إمكانيّة الحدوث، أن نزعم لأنفسنا القدرة على إعفاء الشرّ من الخدمة، ومعه الفعل. لكنّ

الفعلَ جشَعٌ للفتك يشارك الذات في جوهرها، وهو كلَبٌ لا نتفوّق عليه إلاّ في كنف تلك اللحظات، حين ينهكنا تعذيبُ أعدائنا، فنتركهم لمصيرهم يأسنون ويخملون، لأنّنا لم نعد نحبّهم بما يكفي كي نستبسل في تدميرهم وتمزيقهم إربًا وجعلهم موضوع عمليّات التشريح الليليّة. إلاّ إنّ هذا الكَلَبَ سرعان ما يتمكّن منّا من جديد ما أن يحتدم فينا من جديد مذاقُ المظاهر، والميل إلى القشور الذي تتكوّن منه صلتنا بالوجود. إنّ الحياة وإن اختُزلت في أدنى مظاهرها، لَتَتغذّى من نفسها، وتصبو نحو المزيد من الكيان، وترغب في أن تُضاعَف دون سبب وجيه، بل بدافع آليّ لا شرف فيه ولا رادع له. الظمأ نفسه يفترس الذبابة الصغيرة والفيل الضخم. وكنّا نتمنّى أن يخمد هذا الظمأ لدى البشر لكنّنا رأينا أن شيئًا من ذلك لم يحدث، وأنه يتفشّى بضراوة متزايدة حتى في طريحي الفراش. إنّ القدرة على التخلّي هي المقياس الوحيد للارتقاء الروحيّ. حين نغادر الأشياء وليس حين تغادرنا، نرتقي إلى العري الباطني، تلك المنطقة القصوى حيث نفقد كلّ خيطٍ بالعالم وبأنفسنا، حيث النصر يعني الاعتزال والتنحّي بسكينة ودون حسرة وخاصّة دون مالنخوليا. وذلك لأنّ المالنخوليا مهما كانت محتشمة وهوائيّة في مظاهرها فهي تظلّ على صلة بالبغضاء. إنّها حلم يقظة مُشبع بالمرارة، غيرة متخفّية في زيّ سقام، ضغينة بخاريّة. كلّما ظللنا خاضعين لها لم نتخلّ عن شيء، بل تورّطْنا أكثر في «الأنا» دون أن نتخلّص من الآخرين، الذين نفكّر فيهم بقدر عدم خلاصنا من الذات. ولحظةَ نَعِدُ أنفسنا بالتغلّب على الانتقام، نحسّ بالانتقام يتململ

فينا على أهبة الاستعداد للهجوم أكثر من أيّ وقت مضى. فجأة تَطلُبُ الإساءاتُ «المغفورة» حقّها في الردّ، وتحتلّ سهراتنا، وأكثر من ذلك، أحلامَنا، متحوّلةً إلى كوابيس، غائصة أكثر فأكثر في هُويِّنا حتى تصبح مادّةً لها. وإذا كان الأمر كذلك فلماذا نلعب مهزلة المشاعر النبيلة، أو نراهن على مغامرة ميتافيزيقيّة، أو نعوّل على الافتداء. أن ننتقم ولو عن طريق الفكر، يعني أن نقف نهائيّا أقلّ من مستوى المُطلق. ليست الإهانات «المنسيّة» أو المتحمَّلةُ بصمت، وحدها، بل تلك التي واجهناها أيضًا، هي ما ينخرنا ويضنينا ويحاصرنا إلى آخر يوم في حياتنا. وهذا الأمر الذي يُفترض أن يحطّ من قدرنا في عين أنفسنا، يملؤنا زهوًا، على العكس من ذلك، ويجعلنا محاربين شرسين. لن نغفر لأحد من الأحياء أقلّ إذلال، أيّ كلمة، أي نظرة مشوبة ببعض المنع. وليس صحيحًا أنّنا قد نغفرها له حتى بعد موته. قد تهدّئ من روعنا صورة جثّته وقد تدفعنا إلى التسامح، ولكن ما أن تتلاشى الصورة وما أن تتغلب صورة الحيّ في ذاكرتنا على صورة الميت وتحلّ محلّها، حتى تنبعث ضغائننا القديمة وتضطرم من جديد، مع ذلك الموكب من أحاسيس الخزي والإهانة التي ستستمرّ قدر استمرارنا والتي كان لذكراها أن تكون أبديّة لو قدّر لنا الخلود.

مادام كلّ شيء يجرحنا فلماذا لا نلوذ بالشكوكيّة محاولين أن نبحث فيها عن بلسم لجراحنا؟ سيكون ذلك خديعة إضافيّة، ما دام الشكّ ليس سوى ثمرة سخطنا ومآخذنا، وشبيهًا بالأداة التي يستعملها المسلوخ كي يتعذّب ويُعذّب. إذا كنّا ندمّر الثوابت فليس ذلك لهمّة نظريّة أو لهوًا بل من فرط غيضنا لرؤيتها تفلت،

ورغبة منّا في أن لا تكون لأحد ما دامت تهرب منّا وتتركنا دون أيّ يقين. والحقيقة؟ بأيّ حقّ يزعم الآخرون امتلاكها؟ بعد أي مظلمة انكشفت لهم هم الذين قيمتهم أقلّ من قيمتنا؟ هل كدّوا؟ هل سهروا الليل من أجل أن يكونوا جديرين بها؟ كانت ظهورُنا تكاد تنقصم عبثًا للوصول إليها، بينما كانوا هم يختالون وكأنّها حكرٌ عليهم أو حبس منذور لهم بمرسوم إلهيّ. لا يمكن للحقيقة أن تكون وقْفًا عليهم، وكي نمنعهم من ادّعائها، علينا أن نقنعهم بأنّهم يمسكون بوهم حين يظنّون الإمساك بها. وكي نضع ضميرنا في مأمن، يطيب لنا أن نرى في سعادتهم تفاخرًا وتكبّرًا، ممّا يسمح لنا بإرباكهم دون تبكيت ضمير، وبإفشاء ذهولنا فيهم، كي يصبحوا من ثمّ هشّين مثلنا، وتعساء على قدر ما نحن تعساء. إنّ الشكوكيّة هي ساديّة الأرواح المقروحة.

كلّما أسهبنا في الكلام على جراحنا بدت لنا هذه الجراح ملتحمة بشرطنا الإنسانيّ كبشر لا خلاص لهم. وأقصى ما يمكن أن نطمح إليه من تجرّد هو أن نحافظ على أنفسنا في موقع على مسافة واحدة من الانتقام والعفو. في المركز من شراسة وأريحيّة رخوتين فارغتين بنفس الدرجة، لأنّهما منذورتان إلى أن تُبطل إحداهما مفعول الأخرى. لكنّنا لن نفلح أبدًا في سلب الشيخ العجوز، حتى لو ذهبنا بكرهنا لأنفسنا حدّ التخلّي نهائيًّا عن احتلال أيّ موقع في سُلّم الكائنات.

ميكانيزمات اليوتوبيا

لم تحملني الصدفة إلى إحدى المُدُن الكبيرة إلاّ استغربتُ، كيف لا تندلع فيها يوميًّا انتفاضات وفظاعات ومجازر لا توصف وفوضى تُذكّر بيوم القيامة، وكيف يمكن في حيّزٍ بهذا الضيق لبشرٍ بهذا العدد أن يتعايشوا دون أن يُدمّر بعضُهم بعضًا ودون أن يتباغضوا حتى الموت؟ والحقّ أنّهم يتباغضون لكنّهم ليسوا في مستوى بَغْضائهم. هذا العجز وهذه الرداءة هما اللذان يُنقذان المُجتمع ويُؤمّنان له ديمومته واستقراره. استقرار تخترقه أحيانًا هزّاتٌ عابرة تستفيد منها غرائزنا، ثمّ سرعان ما ينظر أحدُنا في عيني الآخر وكأنّ شيئًا لم يكن، مواصلين التعايش دون تناحر ظاهر أكثر من اللزوم. هكذا يستتبّ النظام في هدوء وشراسة، يجعلانه في المُحصّلة أخطر من الفوضى التي قطعته.

أمّا وقد كشف المجتمع عن حقيقته، فإنّ ما يثير استغرابي أكثر، تفاني البعضِ في تصوُّر مجتمع آخر مختلف تمامًا. تُرى من أين يمكن الحصول على هذا القدر من السذاجة أو الجنون؟ ربّما كان السؤال مبتذلاً وعاديًّا إلى أقصى حدّ، أمّا الفضول الذي

دفعني إلى طرحه فهو على العكس من ذلك، يجد ما يُبرّره في فساده.

كنت أبحث عن اختبارات جديدة، وحين كاد ينتابني اليأس خطرت لي فكرةُ الانكباب على الأدب الطوباويّ والرجوع إلى «روائعه» للتشبّع منها والتمرّغ فيها. وكم أسعدني أن أجد فيه ما لبّى رغبتي في الندامة وأشبَعَ جوعي إلى عذاب النفس. يا لها من نعمة غير منتَظرة أن يقضي المرءُ بضعة أشهر في استهلاك ما لا يبين، وفي إحصاء أحلامٍ بمستقبل أفضل وبمجتمع «مثاليّ». أعجّلُ بالتأكيد أنّ هذا الأدَب المنفّر غنيٌّ بالدروس، وأنّ التعامل معه ليس تمامًا مضيعةً للوقت. نتعرّف فيه منذ البداية على الدور (الإيجابيّ أو السلبيّ بحسب الرغبة) الذي لعِبَتْهُ في نشأة الأحداث فكرةُ *السعادة* لا السعادة نفسُها. تلك الفكرة التي تشرح لنا لماذا تهذي كلّ مرحلة بالعصر الذهبيّ، في حين يعلم الجميع أنّ العصر الحديديّ مُتمادٍ في التاريخ. والحقّ أنّنا لو وضعنا حدًّا لهذا الهذيان لتجمّدنا تمامًا، فنحن لا نتحرّك إلاّ منبهرين بالمستحيل. هذا يعني أنّ كلّ مجتمع عاجز عن إنجاب يوتوبيا وتكريس نفسه لها هو مجتمع يتهدّده التيبّسُ والخراب. تُوصي الحكمةُ التي لا يبهرها شيء بالسعادة *المُعطاة*، الموجودة، لكنّ البشر يرفض هذا النوع من السعادة. هذا الرفض وحده يصنع منه حيوانًا تاريخيًّا، أعني هاويًا من هُواة السعادة *المُتخيّلة*.

«ثمّ رأيتُ سماءً جديدة وأرضًا جديدةً لأنّ السماء الأولى والأرضَ الأولى مَضَتَا». هكذا نقرأ في رؤيا يوحنّا. احذِفُوا

السماء واحتفِظوا بـ«الأرض الجديدة»، عندئذ تكتشفون سرّ الأنظمة الطوباويّة وصِيغتَها. قد يكون من الأفضل أن نضع كلمة «مدينة» محلَّ كلمة «أرض» سعيًا إلى مزيد من الدقّة، لكنّه مجرّد تفصيل. المهمّ هو ذلك التشوّفُ إلى قُدومٍ جديد، ذلك التحرُّقُ إلى مُنتَظَرٍ جوهريّ، تلك اللهفةُ التي تنبثق عنها هذه الأنظمة العزيزةُ على البؤساء، لهفةُ انتظار المسيح وقد تمّ ابتذالها وتحديثها. حقًّا ليس للطوباويّ مساعدٌ أكبر من البؤس، فهو المادّة التي يشتغل عليها والجوهر الذي يغذّي به أفكاره والعنايةُ الإلهيّة التي تحرس وساوسه. لولاه لظلّ عاطلاً عن العمل، لكنّه يشغله ويفتنه ويعوقه تبعًا لكونه فقيرًا أو غنيًّا. من ناحية أخرى، لا يمكن للبؤس أن يستغني عن الطوباويّ. إنّه في حاجة إلى هذا المنظّر المتحمّس في إيمانه بالمستقبل. فضلاً عن أنّ هذا البؤسَ لا يكفّ عن البحث لنفسه عن مهرب من حاضره هو أيضًا، وأنّه ما كان ليتحمّل دمار هذا الحاضر لولا هوسه بأرض أخرى. هل تشكّون في ذلك؟ إذنْ فأنتم لم تمرّوا بتجربة الفاقة التامّة. لو مررتم بها لرأيتم أنّكم كلّما ازددتم فقرًا ازددتم هدرًا لوقتكم وطاقتكم من أجل إصلاح كل شيء، ذهنيًّا، أي عبثًا. لا أفكّر هنا في المؤسّسات التي صنعها الإنسان، فهذه عُرضةٌ طبعًا إلى إدانتكم الباتّة ومن الوهلة الأولى، بل أفكّر في الأشياء، كلّ الأشياء مهما كانت تافهة. تلك التي يتعذّر عليكم قبولها كما هي، فإذا أنتم تحاولون إخضاعها إلى قوانينكم ونزواتكم، منتحلين على حسابها عملَ المشرّع والطاغية، ساعين أيضًا إلى التدخّل في حياة العناصر لتغيير ملامحها وبُنيتها. يُضايقكم

الهواء؟ فليتغيّر! كذلك الحجر والنبات وحتى البشر. ولم لا الهبوط إلى أبعد من أُسس الكائن إلى حيثُ أُسُس الفوضى، للاستيلاء عليها والإقامة فيها. حين لا نملك شيئًا لا يبقى أمامنا إلاّ أن نثور، أن نُفْرِط، أن نحلم بامتلاك الكلّ، وهذا الكلّ نمتلكه فعلاً طيلةَ نوبتنا، هكذا نتساوى مع الله لكن دون أن ينتبه إلى ذلك أحد، ولا حتى الله نفسه، ولا حتى نحن. إنّ هذيان المُعدَمين مُوَلِّدُ أحداث، مصدرٌ من مصادر التاريخ، كلّما أراد حشدٌ من المحمومين عالمًا آخر هنا والآن. هؤلاء هم الذين يُلهمون الطوباويّات ومن أجلهم تُكتب. لكن علينا أن لا ننسى أنّ كلمة *يوتوبيا* تعني *اللامكان*.

تُرى من أين تجيء هذه المدُن التي لا يمسُّها سوء، حيثُ العملُ مُبارك ولا أحد يخشى الموت؟ حيث نُرغَمُ على سعادةٍ مجبولة من غراميّاتٍ هندسيّة، ونشواتٍ مُقنّنة، وألف أعجوبة مقرفة، كتلك التي نشاهدها بالضرورة في كلّ عالم *كامل*، مصنوع. بدقّةٍ مثيرة للضحك يصف لنا كامبانيلاّ[1] السولاريّين المعفيّين من «النقرس وداء المفاصل والنزلة وعرق النَسا والمغص والحبَن وريح الأمعاء». . . كلّ شيء وفيرٌ في مدينة الشمس «لأنّ كُلّ عاملٍ حريصٌ على أن يتميّز في عمله. أمّا القائد الذي يُشرف على كلّ شيء فيُسمَّى الملك. وأمّا الرجال والنساء المُقَسَّمون

---

(١) كامبانيلاّ (Tommaso Campanella): فيلسوف ورجل دين دومينيكاني إيطاليّ(١٥٦٨-١٦٣٩) ترك العديد من المؤلّفات، واقتداء بأفلاطون في مدينته الفاضلة، ألّف كتابًا بعنوان مدينة الشمس أو سولاريس، سكّانها السولاريّون أو أبناء الشمس لا يعرفون الأنانية لأنّهم لا يعرفون المِلْكيّة.

إلى جماعات، فهم منصرفون إلى عملهم دون أن يعصوا شيئًا من أوامر ملكهم، ودون أن يُظهروا البتّة أنّهم تعبوا مثلما كنّا نفعل لو حللنا محلّهم. وهم ينظرون إلى قادتهم كأنّهم ينظرون إلى آباء أو إلى إخوة كبار». سنعثر على مثل هذه الترّهات في أعمال من نفس النوع، خاصّةً في أعمال كابيه[١] وفورييه[٢] ومور[٣]، المفتقرة إلى شيء من تلك اللذعة التي لابدّ منها للأعمال الأدبيّة وغيرها.

لتصوُّرِ يوتوبيا حقيقيّة، ولتصوير لوحة معبّرة عن المجتمع المثاليّ، لابدّ من جرعة من السذاجة وربّما البلاهة، على أن لا تكون تلك الجرعة ظاهرةً أكثر من اللزوم كي لا تفضي إلى إثارة سخط القارئ. الطوباويّات الوحيدة القابلة للقراءة هي تلك الطوباويّات المُزيّفة، التي كُتبت على سبيل اللعب بغاية التسلية أو كرهًا للبشر، فكانت من ثمّ مُقدّمات أو نسجًا على منوال رحلات غوليفر، الكتاب المقدّس للإنسان الثائب إلى رُشده، زبدة الرؤى

---

(١) كابيه (Étienne Cabet): منظّر سياسيّ فرنسي (١٧٨٨-١٨٥٦) اعتبره ماركس من الاشتراكيّين الطوباويّين بالمقارنة مع الاشتراكيّين العلميّين. ألف هو أيضًا كتابًا يصوّر فيه مدينته الفاضلة بعنوان رحلة إلى إيكاريا.

(٢) فورييه (François Marie Charles Fourier): رجل اقتصاد وفيلسوف فرنسي (١٧٧٢-١٨٣٧) أسّس ما يُسمّى بالمدرسة التعاونيّة. ترك العديد من المؤلّفات وكان له تأثير كبير.

(٣) مور توماس (Thomas More): مؤرّخ ولاهوتي ورجل سياسة إنقليزي(١٤٧٨-١٥٣٥) طوّبته الكنيسة وقرّبته السلطة ثمّ انقلبت عليه وأعدمته. ترك العديد من المؤلّفات ومن بينها كتابه اليوطوبيا الذي جعل منه رمز الطوباويات.

غير الوهميّة، يوتوبيا بلا أمل. لقد أفلح سويفت[١] عن طريق التهكّم، في تخليص هذا الجنس الأدبي من براءته حدّ تدميره.

ما الأسهل الكتابةُ الطوباويّة أم الكتابةُ القياميّة؟ لكلّ منهما مبادئه ونماذجه التقليديّة. لكنّ الأُولى أقرب في أفكارها العامّة من غرائزنا العميقة، ممّا جعلها تتمخّض عن مُدوّنة أغزر من مُدوّنة الثانية. ليس مُتاحًا للجميع الاعتماد على كارثة كونيّة، ولا التعامل مع اللغة والطريقة اللتين يتمّ بواسطتهما التبشير بتلك الكارثة والإعلان عنها. إلاّ أنّ في وسع من يستسيغ الفكرة ويرحّب بها أن يقرأ في الأناجيل، مع احتدام الرذيلة، الألاعيب والكليشيهات التي سيكون لها شأنٌ في بَطْمُس[٢]: «تُظلم الشمسُ والقمرُ لا يُعطِي ضوْءَهُ والنجوم تسقطُ من السماء. وحينئذٍ تنوحُ جميعُ قبائل الأرض... الحقَّ أقول لكم لا يمضي هذا الجيل حتى يكونَ هذا كلُّه». هذا الحدسُ بما لا يُصدّق، بوشوك حصول حدثٍ أساسيّ، هذا الانتظار الحاسم، يمكن أن يتحوّل إلى وهم، وقد يفضي عندئذ إمّا إلى أمل في جنّة على الأرض أو في مكان آخر وإمّا إلى الحيرة، أي إلى توقّع المثال الأسوأ في هيئةِ جائحةٍ يُتوجّسُ منها برعب ممتع.

---

(١) سويفت (Jonathan Swift): كاتب إيرلندي ذو أصول إنقليزية (١٦٦٧-١٧٤٥) عُرف بكتاباته الساخرة. وترك عدّة مؤلفات من بينها رحلات غوليفر التي تُعتبر من روائع الأدب العالمي.

(٢) بطْمُس (Patmos): الجدزيرة اليونانية التي نفي إليها يوحنا ورأى فيها رؤياه.

«ومن فمه يخرج سيف ماضٍ لكي يضرب به الأمم». إنّها أعراف الفظاعة بل هي في الأرجح إجراءاتها، وقد تحتّم على يوحنا الوقوع فيها منذ اختار هذه الرطانة الرائعة، فاستعراض الانهيارات هو في المحصّلة أفضلُ من الإسهاب في وصف جُزُرٍ ومُدُنٍ ليس فيها سوى سعادة غير شخصيّة خانقة، و«وئام كونيّ» شديد الوطأة. لقد تحقّق أغلب ما حلمت به الطوباويّات ولكن بروح مختلفة عمّا تصوّرتْه. اتّضح أنّ ما اعتبرتْه كمالاً هو في نظرنا عيوب، وأنّ أحلامها أصبحت كوابيسنا، كما اتّضح لنا عند التطبيق أنّ المجتمع الذي صوّرته بحماسة غنائيّة هو مجتمع لا يُطاق. لنحكم على ذلك من خلال هذا المقتطف من *رحلة في إيكاريا*: «ألفان وخمسمائة من الفتيات (مصمّمات أزياء) كنّ يعملن في الورشة، بعضهنّ جالسات والأخريات واقفات وكلّهنّ تقريبًا فاتنات... كان من شأن اعتياد كلّ فتاة القيامَ بالشيء نفسه أن يؤّمن للعمل السرعة إضافةً إلى الإتقان. هكذا كانت أكثر القُبّعات أناقة تخرج بالآلاف كلّ صباح من بين أيدي مبدعاتها الحسناوات...» ـ مثل هذا الهذيان أقرب إلى البلاهة أو إلى سوء الذوق. وعلى الرغم من ذلك أصاب كابيه من الناحية الماديّة ولم يخطئ إلاّ في ما هو جوهريّ. لم يَعْلَم شيئًا عن المسافة الفاصلة بين *أن نكون* و*أن ننتج* (نحن لا نُوجد بأتمّ معنى الكلمة إلاّ خارج ما نعمله، بعيدًا عن أفعالنا)، لذلك تعذّر عليه الانتباه إلى القدَريّة المرتبطة بالعمل مهما كان شكله، تقليديًّا كان أم صناعيًّا أم غير ذلك. إنّ أكثر ما يلفت الانتباه في الحكايات الطوباويّة هو غياب الحدس والغريزة السايكولوجيّة، ممّا يجعل

شخصيّاتها كائنات آليّة خياليّة أو رمزية، ليس من بينها شخصيّة واحدة حقيقيّة، تتجاوز شرطها كدمية أو كفكرة تائهة في عالم بلا مرجعيّات. حتى الأطفال يفقدون فيها ملامحهم. في «الدولة التعاونيّة» العزيزة على فورييه يبدو الأطفال أنقياء إلى درجة أنّهم يجهلون غواية السرقة أو «قطفَ تفّاحة من شجرة». لكنّ الطفل الذي لا يسرق ليس طفلاً. وما الغاية من تأسيس مجتمع من الدمى المتحرّكة؟ إنّي أنصح بوصف الفالانستير[١] كأنجع مقيّئ.

على النقيض من كاتب مثل لاروشفوكو[٢]، يبدو مبتدع الطوباويّات واعظًا لا يرى فينا إلاّ الزهد وشهيّة التضحية ونكران الذات. نحن في نظره كاملون حدّ التفاهة وليس في شرايينا قطرة دم. صعقَنا الخيرُ حتى بتنا بلا خطايا ولا رذائل ولا كثافة ولا نتوءات، لا معرفة لنا بالوجود ولا علاقة لنا بفنّ الخجل من النفس أو بتنويع الخزي والعذاب. إنّه لا يشكّ لحظةً في أنّنا قد نستمتع بانهيار أشباهنا من البشر، وأنّنا قد نتلهّف على حدوث تدهورهم ومتابعته. هذه اللهفة وتلك المتعة قد ينبعان أحيانًا من فضول رفيع لا أثر فيه لما هو شيطانيّ. ما دام الكائن يصعد ويزدهر ويتقدّم فلا أحد يعرف من هو، لأنّ صعوده يبتعد به عن نفسه، فإذا هو مفتقرٌ إلى الواقع، وغير كائن. كذلك نحن، لا

---

(١) الفالانستير (Le phalanstère): وحدة تعاونيّة شبيهة بالمستعمرة، اعتبرها فورييه نموذج مجتمعه الفاضل، وحاول تلاميذه إقامتها أكثر من مرّة وفي أكثر من مكان، دون نجاح.

(٢) لاروشفوكو (François VI, duc de la Rochefoucauld): كاتب وأخلاقي فرنسي (١٦١٣-١٦٨٠) عُرف خاصّة بحِكَمه وأقواله المأثورة.

نعرف من نكون إلاّ لحظةَ نشرع في السقوط، حين يبدو كلّ نجاح على صعيد المصالح البشريّة مطلبًا مستحيلاً: هزيمةٌ بعيدةُ النظر عن طريقها نعيد امتلاك ذاتنا لنفكّ ارتباطنا بالقطيع الكونيّ. من أجل إدراكٍ أفضل لانحطاطنا وانحطاط غيرنا، لابدّ من المرور بالشرّ وربّما لابدّ من الغوص فيه: لكن كيف يسعنا ذلك في هذه المدن أو الجزر التي يُلغَى منها الشرُّ دفاعًا عن مبدأ أو دفاعًا عن مصلحة الدولة؟ العتمات ممنوعة هناك ولا يُسمح إلاّ بالأنوار، ولا أثر فيها للازدواجيّة فاليوتوبيا ضدّ المانويّة أصلاً. إنّها مناوئة لكلّ ما هو منحرف أو مُشوَّه أو غير منتظم، لذلك هي تميل إلى ترسيخ المتجانس والصنف والتكرار والأرثوذوكسيّة. لكنّ الحياة قطيعة وهرطقة وخروج على قواعد المادّة. إنّ الإنسان بالنسبة إلى الحياة ليس سوى هرطقة من الدرجة الثانية تتجسّد فيه النزوة وينتصر فيه الفرديّ. إنّه طيفٌ شاذّ، حيوان ضالٌّ يطمح المجتمع - بوصفه مجموعة وحوش نائمة - إلى إعادته إلى الطريق المستقيم. أمّا الوحش المستيقظ، الهرطوقيّ بامتياز، الذي تتجسّد فيه العزلة ويتجلّى في صورة اعتداء على النظام الكونيّ، فهو يستمتع بفرادته الاستثنائيّة، وينفرد بميزاته الباهظة، ويدفع من عمره مقابل ما يكسبه على حساب أشباهه. إذ كلّما تميّز عنهم ازداد خطورة وهشاشة في الوقت نفسه، لأنّه يراهن بحياته حين يُعكّر سلام الآخرين ويخلق لنفسه وسط المدينة وضعَ غيرِ المرغوب فيه.

«نستطيع تلخيص آمالنا في ما يتعلّق بوضع النوع البشريّ مُستقبلاً في هذه النقاط الثلاث المهمّة: إلغاء اللامساواة بين

الأمم، وتطوير المساواة داخل الشعب الواحد، وأخيرًا تجويد الإنسان». (كوندورسيه)[1]

أمّا التاريخ الذي يهتمّ بوصف المدن *الواقعيّة*، ويلاحظ في كلّ مكانٍ وفي كلّ حينٍ خيبةَ آمالنا لا تَحقُّقَها، فهو لم يصدّق على أيّ من هذه التوقّعات. بالنسبة إلى أمثال تاسيت[2] لا وجود لروما *مثاليّة*.

بإبعادها كلّ ما هو غير عقلانيّ وغير قابل للإصلاح، تتعارض اليوتوبيا مع التراجيديا، منتهى التاريخ وخلاصته. في المدُن المثاليّة يخبو كلّ صراع وتُكْبَحُ الإرادات وتهدأ أو تتّفق بما يشبه المعجزة. هناك لا تسود إلاّ الوحدة المُجرّدةُ من عنصر الصدفة أو التناقض. إنّ اليوتوبيا مزيج من العقلانيّة الصبيانيّة والملائكيّة المُعَلْمَنة.

نحن غرقى في الشرّ. لا يعني ذلك أنّ أفعالنا كلّها شرّيرة، لكن ما أن يحدث لنا أن نرتكب *الخير* حتى نتعذّب، لأنّنا نتحرّك في الاتّجاه المعاكس لفطرتنا. تتحوّل ممارسة الفضيلة إلى تمرين في التوبة وإلى درس في النُسك. يُؤمَر الشيطان بالإبداع، هو الملاك الساقط الممسوخ إلى صانعٍ للكون، فيقف في وجه الإله، وإذا هو على الأرض أكثر منه ارتياحًا بل وأقوى منه. إنّه ليس منتحلاً بالمرّة، بل هو سيّدنا والسلطان الشرعيّ الذي ما كان

---

(١) كوندورسيه (Condorcet): فيلسوف وعالم رياضيّات ومنظّر سياسيّ فرنسي (١٧٤٣-١٧٩٤). كتب في عدّة مجالات وحاول تطبيق قوانين الرياضيّات في بعض المجالات السياسيّة كالانتخابات.

(٢) تاسيت (Tacite): مؤرّخ وفيلسوف رومانيّ (٥٥-١٢٠)

ليجد صعوبة في الانتصار على العَلِيّ لو اختُزل الكون في الإنسان. فلنتحلّ بالشجاعة الكافية للاعتراف بوجهة تبعيّتنا.

لم تغفل الأديان الكبرى عن ذلك. إنّ ما اقترحه مارا على بوذا وأهريمان على زرادشت والمُجَرِّبُ على يسوع ليس سوى الأرض والتفوّق على الأرض. حقيقتان تنتميان بالفعل إلى سلطة أمير العالم، الذي لا يمكن للرغبة في إرساء عهد جديد، سواء تجسّدَ في يوتوبيا شاملة أو في إمبراطوريّة كونيّة، إلاّ أن تصبّ في مصلحته وأنْ تبدو تعاونًا معه وإتمامًا لما شرع فيه، فهو لا يتمنّى شيئًا بقدر ما يتمنّى أن يرانا نتورّط في التواطؤ معه، ونحيد بسبب خلطته عن النور وعن حسرتنا على نعيمنا القديم.

أُغْلِقَ الفردوس طيلة خمسة آلاف عام حسَبَ القدّيس يوحنّا فم الذهب، ثمّ أعيد فتحُه لحظةَ موت المسيح. أمكن للمُذنب أن يدخل وتبِعَهُ آدم وقد أعيد أخيرًا إلى الوطن، والتحق بهما عدد قليل من الأبرار كانوا يهيمون في الجحيم في انتظار «ساعة الفداء».

كلّ المؤشّرات تدعو إلى الاعتقاد بأنّ الفردوس أُقفل من جديد وأنّه سيظلّ كذلك لمدّة طويلة، فلا أحد يستطيع أن يدخله عنوة، ولا شكّ أنّ أصحاب الامتياز القلائل الذين يتمتّعون به قد تمترسوا داخله وفق نظام جرّبوا في الأرض أعاجيبه. ذاك هو الفردوس الحقيقيّ، فيما يبدو، فنحن في أشدّ لحظاتنا إحباطًا لا نفكّر إلاّ فيه ولا نحلم بالذوبان في غيره، وكأنّ حنينًا مفاجئًا يدفعنا إليه ويلقي بنا فيه. فهل ترانا نصبو، في لحظة خاطفة، إلى

استرجاع ما ضيّعناه منذ الأزل، مكفّرين فجأة عن خطيئة ولادتنا؟ لا شيء يكشف عن المعنى الميتافيزيقيّ للحنين أفضلَ من استحالة اتّفاقه مع أيّ لحظة زمنيّة معيّنة. لذلك هو لا يني يبحث عن عزاء في ماضٍ بعيد، سحيق، مقاوم للقرون، كأنّه أَسْبَقُ من الصيرورة. إنّ الحنين يشكو مرضًا ناتجًا عن قطيعةٍ يعود تاريخها إلى البدايات، وهذا المرض يمنعه من إسقاط العصر الذهبيّ على المستقبل، فالعصر الذهبيّ الوحيد الذي يتصوّره هو ذاك القديم، الأساسيّ، الذي يتوق إليه لا ليستمتع به بل ليضيع فيه، متخلّصًا فيه من عبء الوعي. لا يعود الحنين إلى منبع الزمن إلاّ ليلتقي من جديد بالفردوس الحقيقيّ، موضوع حسراته. على النقيض من ذلك، يبدو الحنين إلى الفردوس الأرضيّ مجرّدًا من تلك الحسرات تحديدًا: إنّه حنين مقلوب، مزيّف ومُشوّه، مشدود إلى المستقبل، وقد استحوذت عليه فكرة «التقدّم» كنسخة زمنيّة ومسخ للفردوس الأصليّ. هل هي العدوى؟ هل هو تصرّف آليّ؟ أيًّا كان الأمر فقد انتهى بهذا التحوّل إلى أن يحدث في كلٍّ منّا. طوعًا أو كرهًا نحن نراهن على المستقبل، نصنع منه دواءً لكلّ داء، نرى فيه انبثاقًا لزمن *مغاير تمامًا* داخل الزمن نفسه، نعتبره ديمومةً لا نهاية لها على الرغم من كونها كاملة، شبيهة بتاريخ لازمنيّ، وهو تناقض في التسمية ناشئ عن الأمل في عهد جديد، في انتصارِ ما هو غيرُ قابلٍ للانحلال في صلب الصيرورة. إنّ أحلامنا بعالم أفضل مُؤسّسةٌ على استحالة نظريّة، فهل من عجبٍ في أن يتوجّب العمل على تبريرها بمُفارقات *صلبة*؟

لم تكن اليوتوبيا لتُغويَ نُفوسًا وجدت ضالّتها في المسيحيّة. لكن ما أن أخذت المسيحيّةُ تخيّب آمال تلك النُفوس حتى حاولت اليوتوبيا أن تغزوها وأن تقيم فيها. كانت قد شرعت في ذلك منذ عصر النهضة، إلاّ أنّه لم يُقدّر لها أن تنجح إلاّ بعد ذلك بقرنين، في عصر الخرافات «النيّرة». هكذا وُلِد المُستقبَل بوصفه رؤيا سعادةٍ لا رجعة فيها، وفردوسٍ مُوَجَّهٍ لا مكان فيه للصدفة، حيث تبدو أدنى نزوة هرطقةً أو استفزازًا. إنّ وصف مثل هذا المكان يعني الدخول في تفصيل ما لا يمكن تخيُّله. بل إنّ فكرة المدينة الفاضلة في حدّ ذاتها عذاب للعقل، وعمل يُشرّف القلب لكنّه يُقصي الذهن. (كيف أمكن لمثل أفلاطون أن يتنازل إليه؟ فقد كدتُ أنسى أنّه سلفُ كلّ هذه الترّهات، التي عاد إليها وزاد طينَها بلّةً توماس مور، مؤسّس الأوهام الحديثة.) ماذا يعني التخطيط لمجتمع تحكمه مراسم مُرعبة، حيثُ تُصنَّفُ أفعالُنا وتُقنَّن، وحيث يبلغُ الإحسانُ حدّ قلّة الحياء، فيقع الانكباب حتى على نوايانا المُبيّتة. ماذا يعني ذلك سوى نقل عذابات الجحيم إلى العصر الذهبيّ، أو التحالف مع الشيطان لإنشاء جمعيّة خيريّة. سولاريّون، طوباويّون، وئاميّون[1] ـ أسماؤهم المرعبة تشبه مصيرهم. إنّه كابوس موعودٌ لنا نحن أيضًا، بما أنّنا أقمناه بأنفسنا كمثل أعلى.

بتمجيدها محاسن العمل يُفترض في الطوباويّات أن تقف على النقيض من سِفْر التكوين. فهي من هذه الناحية تحديدًا،

(١) نسبة إلى فكرة الوئام الشامل أو الوئام الكونيّ.

تعبيرٌ عن إنسانيّة مطمورةٍ في العَناء، فخورةٍ بأن تَرُوقَ لها عواقبُ السقوط، التي يظلُّ أخطَرَها وسواسُ المرْدُود. نحن نحمل بكبرياء وتباهٍ سمات جنسٍ يعشقُ عرقَ الجبين، ويصنع منه علامة نُبل، ويتحرّك ويشقى ببهجة عارمة. لذلك نشعر نحن المنبوذين بالتقزّز من كلّ من يرفض الكدّ والتميّز في أيّ مجال كان. هذا الرفض الذي نؤاخذه عليه ليس متاحًا إلاّ لمن احتفظ بذكرى سعادة غابرة، فإذا هو متغرّب بين نظرائه، يشبههم ويعجز عن الاندماج فيهم، يلتفت فلا يشعر بأنّه من هنا، ينظر فلا يتبيّن إلاّ ما يبدو له انتحالاً، حتى كونه يحمل اسمًا... يفشل في كلّ ما يعزم عليه لكنّه يقوم به دون اقتناع، كمن يجاري خدعةً هو منشغل عنها بصورة واضحة لعالم آخر. ما أن أُطرد الإنسان من الفردوس حتى حصل كتعويض على ملَكةِ إرادة الفعل والميل إليه والهلاك فيه بحماسة ومهارة، كي لا يفكّر في ما ضاع منه فيتعذّب. ولكن أيَّ جهدٍ يبذُلُ فاقدُ الإرادة المغرق في زهده وضناه الخارق؟ وبأيّ المواضيع يعتني؟ لا شيء يحفّزه على الخروج من غيابه. وعلى الرغم من ذلك، هو أيضًا لا ينجو تمامًا من اللعنة المُشتركة: إنّه *يُنهك* نفسه في الحسرة، ويبذل فيها من الطاقة ما لا نبذله في كلّ أعمالنا الباهرة.

بإلحاحه على أنّ مملكة الربّ ليست من هذا العالم بل هي في داخلنا، كان المسيح يدينُ مسبقًا كلّ بنيان طوباويّ لا يتصوّر الممالكَ إلاّ *خارجيّةً* بالضرورة، لا علاقة لها بذاتنا العميقة أو بخلاصنا الفرديّ. لقد أثّرت فينا الطوباويّات حتى أصبحنا لا

ننتظر الخلاص إلاّ من الخارج، من تسلسل الأمور أو من حركة الجماعات. هكذا أخذت ترتسم ملامح اتّجاه التاريخ الذي عوّض «التقدّم» من حيث الحظوة دون أن يضيف إليه جديدًا. وكان لابدّ من نبذ إحدى ترجمات هذا المفهوم، لا المفهوم نفسه، لفرط استغلالها. ممّا يدلّ على أنّنا ما كنّا لنتجدّد بسهولة في مجال الإيديولوجيا دون عون من المرادفات.

أصبحت فكرةُ قابليّةِ الكمال راسخةً في تقاليدنا على الرغم من تنوّع أقنعتها. لقد فرضت نفسها حتى على مناهضيها. لا أحد يبدو مستعدًّا للتسليم بأنّ التاريخ يجري لا غير، بمعزل عن أيّ هدف أو اتّجاه مُحَدّد. «للتاريخ هدف وهو يجري في اتّجاه هذا الهدف بل يُفتَرضُ أنّه وصل إليه». بذلك تهتف رغباتنا ومذاهبُنا. كلمّا شُحِنت الفكرةُ بالوعود الفوريّة ازداد حظّها في الانتصار. كان المسيحيّون أعجز من أن يعثروا على «مملكة الله» في أنفسهم، بل لعلّهم كانوا أذكى من أن يبحثوا عنها هناك، فأحالوها إلى المستقبل. لقد أفسدُوا التعليم من أجل أن يؤمّنوا له أسباب النجاح. والحقّ أنّ المسيح نفسه غذّى هذا الالتباس. كان يواجهُ الفرّيسيّين مناديًا بمملكةٍ باطنيّة خارج الزمن، من ناحية، بينما كان يؤكّد لتلاميذه من ناحيةٍ أخرى، أنّ الخلاص وشيك وأنّهم سيشهدون هم و«هذا الجيل» تمامَ كلّ شيء. لقد فهم أنّ البشر يَقْبَلون الاستشهاد من أجل وَهْمٍ لكنّهم لا يَقْبَلونه من أجل حقيقة، فتحاور مع ضعفهم. لو تصرّف بشكل مختلف لخاطر برسالته. إلاّ أنّ ما كان لديه تنازلاً أو تكتيكًا، أصبح لدى الطوباويّين مُصادرةً أو هوسًا.

قُطِعت خطوةٌ كبيرة إلى الأمام يومَ فهم البشر أنّ عليهم أن يتجمّعوا، أن يُنظّموا أنفسهم في مجتمع إذا أرادوا أن يُعذّب بعضُهم بعضًا بشكلٍ أفضل. ويبدو إذا صدّقنا الطوباويّات أنّهم لم يحقّقوا في ذلك إلاّ نصفَ نجاح، لذلك تتطوّع اليوتوبيا لمساعدتهم ومنحهم الإطار المناسب لممارسة سعادةٍ كاملة، مع اشتراطها عليهم كمقابل أن يتنازلوا عن حريّتهم، أو إذا حافظوا عليها، أن لا يستعملوها إلاّ للتعبير عن فرحهم وسط العذاب الذي يتنافسون في تسليطه بعضٌ على بعض. هكذا يبدو معنى اهتمامها الجهنّمي بهم. كيف لا نتوقُ في مثل هذا الوضع إلى يوتوبيا معاكسة، إلى نوع من تصفيةِ الخير الطفيف والشرّ الهائل المرتبطين بوجود كلّ نظام اجتماعيّ مهما كان؟ المشروع مغرٍ وغوايتُهُ لا تُقاوم. لكن بأيّ وسيلة يمكننا وضعُ حدٍّ لحصيلةٍ من الانحرافات بهذا الحجم؟ نحتاج إلى شيء شبيه *بالمُذوِّبِ الشامل* الذي كان يبحث عنه الخيميائيّون، والذي يمكننا اختبار نجاعته لا على المعادن بل على المؤسّسات. لنُلاحظْ بالمناسبة وفي انتظار العثور على هذه الصيغة الخيميائيّة، أنّ الخيمياء واليوتوبيا يشتركان في نواحيهما الإيجابيّة. كلاهما يسعى في مجالٍ غيرِ متجانسٍ وراء حلمٍ بالتحوّل مشابهٍ إن لم يكن مماثلاً لحلم الآخر. تحملُ الخيمياءُ على ما لا يُختَزَلُ في الطبيعة، بينما تحملُ اليوتوبيا على ما لا يُخْتَزَلُ في التاريخ، لنكتشف في النهاية أنّ إكسيرَ الحياة والمدينةَ الفاضلة ينْجُمان عن نفس العيب العقليّ أو عن نفس الأمل.

تحتاج الأمّة كي تتميّز عن غيرها من الأمم، أو كي تُذِلَّ الأممَ الأخرى وتسحقَها، أو ببساطة كي تكتسب سحْنةً فريدة، إلى فكرة غير معقولة تقودها وتقترح عليها أهدافًا أبعد بكثير من إمكاناتها الحقيقيّة. كذلك لا يتطوّر المجتمع ولا يؤكّد ذاته إلاّ إذا عُرِضَتْ عليه أو غُرِسَتْ فيه مُثُلٌ عُلْيَا أكبر بكثير من حجمه الحقيقيّ. هكذا تنهضُ اليوتوبيا في حياة المجموعة بنفس الوظيفة الموكولة إلى فكرة الرسالة في حياة الشعوب. وليست الإيديولوجيات إلاّ النتاج المتفرّع، وربّما التعبير المبتذل، عن الرؤى التبشيريّة أو الطوباويّة.

الإيديولوجيا ليست جيّدة أو سيّئة في ذاتها فكلّ شيء متوقّف على لحظة تبنّيها. للشيوعيّة مثلاً في الأمّة الفحوليّة فعلُ المُنشّط الذي يدفعها إلى الأمام ويُساعد على توسُّعها. لكنّ فعلها في الأمّة المُهتزّة قد يكون أقلّ توفيقًا. ليست الشيوعيّة خطأً أو صوابًا بل هي مُعجّلٌ للمسارات، ولم تكتسب روسيا حيويّتها الراهنة بسببها بل من خلالها. فهل يمكنها أن تلعب الدورَ نفسَهُ لو أنّها طُبّقت في سائر أوروبّا؟ هل يُمكنها أن تصبح عاملَ تجدُّد؟ نرغبُ في أن نأمل ذلك. وعلى أيّ حالٍ فإنّ السؤال لا يحتمل إلاّ إجابةً غير مباشرة واعتباطيّة، ومُسْتَلْهَمة من قياساتٍ ذات مرجعيّةٍ تاريخيّة. لنفكّر في تأثيرات المسيحيّة في بداياتها. لقد وجّهت ضربة حاسمة للمجتمع القديم وشلَّتْهُ وأجهزت عليه، لكنّها في المقابل، كانت نعمةً على الهَمَجِ الذينَ ثارت غرائزهم عند الاحتكاك بها، ولم تنجح في إحياءِ عالَمٍ هالك بقدر ما نجحت في أن تُحيِيَ الأحياء. وسيرًا على النهج نفسه لن تمنح

الشيوعيّة الخلاص إلاّ لمن ظفروا بعدُ بالخلاص، ولن تستطيع منحَ المُحتضرين أيّ أملٍ محسوس، فضلاً عن أن تبعث الروح في الجثث.

بعد أنْ فضحْنا سخافات اليوتوبيا علينا أن ننكبّ على مزاياها، وما دام البشر راضين إلى هذا الحدّ بالوضع الاجتماعيّ ويكادون لا يتبيّنون الشرّ الكامن فيه، فلنفعل مثلهم: لنشاركهم غفْلَتَهُم.

لن نَفِيَ الطوباويّات حقّها من الثناء على فضْحِها سيّئات المِلْكيّة والفظاعةَ التي تُمثِّلُها والكوارثَ التي تتسبّب فيها. المالكُ صغيرًا كان أم كبيرًا مُلوَّثٌ وفاسدٌ في جوهره. ولا يلبث فساده أن ينعكس على أدنى الأشياء التي يلمسها أو يمتلكها. لكن ما أن يُهدَّدَ في «ثروته» أو يُحْرَمَ منها حتى يُرغَمَ على يقظةِ وعيٍ هو في العادة عاجزٌ عنها. إنّه لا يسترجع روحه إلاّ إذا أفلس أو قبِلَ بإفلاسه. وستساعده الثورة على ذلك. إنّها بإرجاعه إلى عُرْيِهِ البدائيّ تُدمِّرُهُ في الحاضر وتُنْقِذُه في المُطلق، وذلك لأنّها تُحرّر، باطنيًّا طبعًا، أولئك الذين تبادر بضربهم أي أصحاب الأملاك. إنّها تعيد ترتيبهم *طبقيًا* وتمنحهم حجمهم السابق وتعود بهم إلى القِيَم التي خانوها. لكنّها قبل أن تتمكّن من الفرصة أو الوسيلة لضربهم، تُغذّي فيهم خوفًا مفيدًا يُفسد عليهم نومهم ويضاعف كوابيسهم، وهل الكابوس إلاّ بداية اليقظة الميتافيزيقيّة. تكشف الثورة إذنْ عن فائدتها انطلاقًا من كونها عامِلَ دَمار. وحتى لو بدت ضارّةً فإنّ لديها ما يُكفّرُ دائمًا عن سيّئاتها: كوْنها الوحيدة

التي تعرف أيّ نوع من الرعب تستعمل لزعْزَعةِ عالَم المَلاّكين، وهو أبشع عالَمٍ يُمكنُ تصوُّرُه. لِنَقُل دون خوفٍ من التكرار إنّ من شأنِ أيِّ نوعٍ من المِلْكِيّة أن يُفْسِدَ ويُسَفِّلَ ويُصانِعَ الوحشَ النائمَ في قرارةِ كُلٍّ منّا. إنّ التصرّف في أيّ شيء وإن كان مكنسةً، والنظرَ إلى أيّ شيء باعتباره مِلْكًا *خاصًا*، هو نوع من الانخراط في الخزْي العامّ. وفي المُقابل يا لَهُ من كشْف، وكم هو مدْعاةٌ للفخر، أن تعلَمَ بأنّك لا تمتلك شيئًا. كنت تعُدُّ نفسكَ أحقَرَ الناس وها أنتَ فجأةً وكأنّك تفاجأ وتُضاءُ بعَوَزِك، فلا تتألّم بسببه بل بالعكس تتّخذ منه مصدرًا للزهو، وكلّ ما تتمنّاه بعد ذلك أن تصبح في عَوَزِ قدّيسٍ أو مجنون.

ما أن تُرهقنا القيمُ التقليديّة حتّى نتّجه بالضرورة ناحية الإيديولوجيا التي تنفيها. هذه الإيديولوجيا تغرينا بقوّتها الإنكاريّة أكثر ممّا تغرينا بصِيَغِها الإيجابيّة. إنّ الرغبة في زعزعة النظام الاجتماعيّ تعني عبور أزمة تغلبُ عليها بدرجة أو بأخرى تيمات شيوعيّة. يصحّ ذلك اليوم مثلما صحّ بالأمس ومثلما سيصحّ غدًا. يحدث كلّ شيء منذ عصر النهضة وكأنّ العقول مشدودة إلي الليبرالية في السطح ومشدودة إلى الشيوعيّة في العمق. ليست الشيوعيّة نتاجًا ظرفيًّا أو حادثةً تاريخيّة، بقدْرِ ما هي وريثة الأنظمة الطوباويّة والمستفيدُ الرئيسيّ من عمل تحْتِيٍّ طويل النفس. تبدأُ الشيوعيّة كنزوة أو انشقاق، ثمّ إذا هي تتّخذ صفة القدَر أو الأرثودوكسيّة. في الساعة الراهنة ليس في وسع الوعي أن يمارس غير طريقتين من الثورة: الطريقة الشيوعيّة أو

الطريقة المضادّة للشيوعيّة. ولكن كيف يمكننا أن لا ننتبه إلى أنّ الوقوف ضدّ الشيوعيّة يُخفي إيمانًا، حانقًا ومرتعبًا، بمستقبل الشيوعيّة؟

عندما يحينُ موعدُ إيديولوجيا مَا فإنّ كلّ شيء يُساهم في نجاحها حتى أعداؤُها. لا الجدل ولا البوليس يستطيعان إيقاف تقدّمها أو إرجاء نجاحها. إنّها تريد فتستطيع أن تتحقّق وأن تتجسّد. لكنّها كلّما أفلحت في ذلك ازداد خطرُ إصابتها بالإرهاق. وقد يؤدّي انتصارُها إلى إفراغها من مضمونها المثاليّ واستنفاد مخزونها، ممّا يهدّد في النهاية وُعود الخلاص التي كانت تحت تصرّفها، فإذا هي تنحطّ إلى مستوى الثرثرة أو الفزّاعة.

إنّ بقاء الشيوعيّة مشروطٌ بالإيقاع الذي تُنفِقُ وفْقَهُ مُدّخراتها من اليوتوبيا. مادامت محافظة على مدّخراتها فإنّها تظلّ قادرةً حتْمًا على إغراء كلّ المجتمعات التي لم تجرّبها. قد تتراجع هنا وقد تتقدّم هناك إلاّ أنّها بما تُحَمَّلُ من مزايا لا نظير لها لدى أيّ إيديولوجيا أخرى، لن تلبث أن تغطّي الكوكب، حالّةً محلّ الأديان الهالكة أو المترنّحة، مقترحةً على الجموع الحديثة وفي كلّ مكان، مُطلقًا جديرًا بِعَدَمِهِم.

تبدو الشيوعيّة في حدّ ذاتها الواقعَ الوحيد الذي مازال يستحقّ التصديق، هذا إذا كنّا محافظين ولو على شيء من الوهم في المستقبل، من ثمّ يجوز القول إنّنا كلّنا شيوعيّون بدرجات متفاوتة. . . لكن أليس من الجدل العقيم أن نحكم على مذهبٍ من المذاهب، بعيدًا عن الانحرافات الملازمة لتحقّقه في الواقع

الملموس؟ يحافظ الإنسان دائمًا على أمله في حلول العدالة، ومن أجل انتصارها يفرّط في حريّته ثمّ يتحسّر عليها. مهما فعل فإنّ كل ما يفعله أو يفكّر فيه ينتهي إلى طريق مسدود. كأنّ الطريق المسدود ليس نهايةَ مطافِ أفعالِه وأفكارِه بل هو منطلقُها وشرطُها ومفتاحُها. لا وجود لشكلٍ اجتماعيّ جديد قادر على إنقاذ محاسِن الشكل القديم. ونحن نعثر في كلّ أصناف المجتمعات على حصيلة من المساوئ تكاد تكون متساوية. توازنٌ لعينٌ وجمودٌ لا شفاء منه يعذّب الأفراد والمجموعات على حدٍّ سواء. وليس للنظريّات ما تقوم به في هذا الصدد، بما أنّ باطنَ التاريخ ممتنعٌ عن المذاهب التي تَسِمُ مظهرَه. كانت الحقبة المسيحيّة مختلفةً تمامًا عن المسيحيّة، ولن يكون للحقبة الشيوعيّة بدورها أن تُمثّل الشيوعيّة ككلّ. ليس من حدثٍ مسيحيّ بطبعه أو شيوعيّ بطبعِه.

إذا كانت اليوتوبيا وهْمًا مُؤَقْتَمًا فإنّ الشيوعيةَ ستذهبُ أبعدَ من ذلك، لتُصبح وهْمًا مُقرّرًا ومفروضًا، تحدّيًا مرفوعًا في وجه الشرّ وحضورِه الطاغي، تفاؤلاً *إجبارِيًّا*. سيكون التعايش مع الشيوعيّة صعبًا على كلّ من عَرَكَتْهُ التجاربُ والمِحَن، فإذا هو يعيش في نشوة الخيبة، واقتداءً بمُحَرِّر سفْرِ التكوين، يُحْجِمُ عن ربط العصر الذهبيّ بالصيرورة. ليس بسبب اشمئزازه من المهووسين بـ «التقدّم اللامحدود»، وجهودهم المضنية من أجل انتصار العدالة في هذا العالَم، بل لأنّه يَعْلَمُ لسوء حظّه أنّها استحالةٌ ماديّة، لامعقولٌ ضخْم، المثلُ الأعلى الوحيد الذي

يمكن التأكيد بثقةٍ تامّة أنّه لن يتحقّق أبدًا، ويبدو أنّ المجتمع والطبيعة قد استنفرا ضدّه كلَّ ما يملكان من قوانين.

ليس هذا الشدّ والجذبُ والتنازع وقفًا على فرد، فنحن جميعًا عرضةٌ له بدرجات متفاوتة من الحدّة. ألسنا نرغب في دمار مجتمعنا هذا، على الرغم من علمنا بخيبات الأمل التي يخبّئها لنا المجتمع الذي قد يعوّضه؟ انقلاب تامّ حتّى إن كان بلا جدوى، ثورة بلا *إيمان*، ذاك آخر ما نستطيع التطلُّع إليه في عصرٍ لم يبقَ لأحدٍ من أهله ما يكفي من البراءة كي يكون ثوريًّا حقيقيًّا. نقعُ فريسةً لسُعار العقل فنستسلم لسُعار الفوضى، أي نردّ الفعل مثل أهْوج مُتحكّم في ملكاته، مثل مجنون متفوّقٍ على جنونه، أو مثل إلهٍ انتابهُ عارضٌ من السعار الواعي، فطاب لهُ أن يُحطّمَ عَمَلَهُ وذاتَه.

هكذا إذنْ لم تعد أحلامنا بالمستقبل منفصلةً عن مخاوفنا. ثار الأدب الطوباويّ في بداياته على القرون الوسطى، معترضًا على إعجابها الشديد بالجحيم وعلى ولعها بمشاهد نهاية العالم. وكانّ الأنظمة المُطَمْئِنة التي أنشاها كمبانيلاّ أو مور لم تكن إلاّ من أجل التشكيك في مثْلِ هلوسات القدّيسة هيلدغارد[1]. أمّا اليوم وقد تصالحنا مع الفظيع، فإنّنا نشهد تلوّث اليوتوبيا بالقيامة. شيئًا فشيئًا تتّخذ «الأرض الجديدة» التي نُوعَدُ بها هيئةَ جحيم جديدة. لكنّها جحيم ننتظرها، بل نرى من واجبنا التعجيل

---

(١) هيلدغارد (Hildegarde de Bingen): راهبة ومتصوفة ألمانية (١٠٩٨-١١٧٩) تركت العديد من الكتابات والتراتيل الكنسية.

بقدومها. كان الطوباويّ والقياميّ يبدوان في نظرنا نوعين مختلفين، وها هما اليوم يتداخلان ويحلّ لونُ أحدِهما على الآخر حدَّ تشكيلِ نوعٍ ثالث، نوعٍ رائعٍ في قُدْرَتِهِ على التعبير عن شِبْهِ الواقعِ الذي يتهدّدنا، والذي لن نمْلِكَ أمامه إلاّ أن نقولَ نَعَمْ، نعمْ لائقة وبلا أوهام. تلك طريقتنا في أن نكون *كاملين* أمام القدر المحتوم.

العصر الذهبي

١

«كان البشر حينئذ يعيشون مثل الآلهة وقد تحرّرت قلوبهم من كلّ المشاغل، بعيدًا عن العمل والألم. لم تكن الشيخوخة الكئيبة تزورهم. وكانوا ينعمون ببهجة المآدب في مأمن من كلّ الأمراض، وقد اطمأنّوا إلى دوام حيويّة أقدامهم وأيديهم طيلة حياتهم. كانوا يموتون كأنّهم ينامون، بعد أن يغلبهم النعاس. وكانوا يملكون كلّ شيء. كما كانت الحقول الخصبة تمنحهم بنفسها غذاء وفيرًا يتمتّعون به على هواهم...» (هيزيود: الأعمال والأيّام.)

هذه الصورة عن العصر الذهبيّ لا تختلف في شيء عن صورة جنّة عدْن التوراتيّة. كلاهما اتّفاقيٌّ إلى أقصى حدّ. لا يمكن للوهميّ أن يكون دراميًّا. إلاّ أنّ ما يُحسبُ لهما على الأقلّ أنّهما يحدّدان صورة عالَم ثابت، حيث لا تكفُّ الهويّة عن التأمُّل في ذاتها، حيث يسودُ الحاضر الأبديّ، ذلك الزمن المشترك بين كلّ الرؤى الفردوسيّة، والمجبول على النقيض من

فكرة الزمن تحديدًا. لا يمكن تصوُّرُ مثل هذا العالم والتطلُّعُ إليه إلاّ بممارسة الصيرورة والإحساس بثِقَلِها وبلواها والرغبة بكلّ ثمن في الفكاك منها. هذه الرغبة هي آخر ما ظلّ في مستطاع الإرادة العاجزة، المتلهّفة على الاسترخاء والانحلال بعيدًا. لو أتيح لنا الانخراط دون تحفّظ في الحاضر الأبديّ لتعذّر على التاريخ أن يحدُث، أو على الأقلّ لما كان مرادفًا للعبء والعذاب. ما أن يثقل علينا التاريخ أو ينهكنا حتى يتملّكنا جبنٌ لا يُوصف: نفكّر في أنّنا سنظلّ نتخبّط وسط القرون فتتّخذ هذه الفكرة حجمَ كابوس. عندئذ تغرينا رفاهية العصر الأسطوريّ حدّ العذاب، أو يلقي بنا هذيان الندم في ذهول الاغتباط بالجنّة الأولى، إذا كنّا من قرّاء سفر التكوين، بينما عقولنا منشغلة بالملائكة متفانية في استقصاء أسرارهم. كلّما فكّرنا في الملائكة انبثقوا من وَهَنِنَا، وقد لا يخلو ذلك من بعض الفائدة: ألا يسمحون لنا بقياس درجة عدم انتمائنا إلى العالَم وعدم قدرتنا على الاندماج فيه؟ مهما كان الملائكة غير محسوسين وغير واقعيّين فإنّهم أقلّ منّا في ذلك، نحن الذين نفكّر فيهم ونستحضرهم، نحن الظلال أو الظلال المزيّفة، بلحمنا المُجفّف ونَفَسنا المقطوع. إنّنا لَنُفَكّرُ فيهم ونتضرّع إليهم بكلّ ما نملك من بؤس، مثلَ أشباح مُعَذَّبة. ليس من شيء مفزع في طبيعتهم كما تزعم إحدى المرثيّات، كلاّ، فالمفزع أن يصل بنا الأمر حدَّ عدم الاتّفاق مع غيرهم، أو أن نظنّهم على بعد آلاف الأميال منّا، فإذا نحن نراهم ينبثقون فجأة من غروب دمنا.

٢

تولّى بروميثيوس الكشف لنا عن «منابع الحياة» التي زعم هيزيود أنّ الآلهة أخفوها عنّا. دون أن ينتبه إلى أنّه أصبح مسؤولاً عن مصائبنا على الرغم من ادّعائه الوعي. ها هي الكلمات التي ينسبها إليه أسخيلوس وقد بدت على النقيض تمامًا من تلك التي قرأناها في *الأعمال والأيّام*: «قديمًا كان البشر يبصرون لكن دون بصيرة، كانوا يسمعون لكن دون فهم، كانوا يفعلون لكن دائمًا دون تفكير». النبرة واضحة فلا حاجة للمزيد من الاقتباس. ما كان يلومهم عليه في المحصّلة هو انغماسهم في ولعهم البدائيّ وانصياعهم لقوانين فطرتهم التي لم ينل منها الوعي. وهو لم يمنحهم السعادة بل اللعنة وعذاب العملقة، حين أيقظهم على العقل، وحين فصلهم عن «منابع الحياة» تلك التي كانوا يستمتعون بها دون أن يهتمّوا بتلمّس أسرارها أو أعماقها. كانوا في غنًى تامّ عن الوعي فإذا هو يرميهم به ويضطرّهم إليه، حتّى باتوا فريسة مأساة تتواصل في كُلٍّ منّا ولن تنتهي إلاّ بانتهاء النوع البشريّ. لا تتقدّم الأزمنة إلاّ ازداد احتكار الوعي لنا وازدادت سيطرتُهُ علينا، حتى أنّه ينتزعنا من الحياة، فنحاول التمسّك بها من جديد، وحين نفشل لا نملك إلاّ أن نسخط عليها وعلى الضمير، ثمّ نزن دلالتهما ومعطياتهما، فنضيق ذرعًا وينتهي بنا الأمر إلى السخط على أنفسنا. لاشكّ أنّ محبّ البشر النحسَ هذا لم يتوقّع كلّ ذلك، وليس له من عذر إلاّ الوهم، هذا المُجرّبُ بالرغم عنه، الثعبان المتهوّر قليل الفطنة. كان البشر يسمعون، فما حاجتهم للفهم؟ لكنّهم أجبرهم على ذلك، وهكذا

سلّمهم إلى الصيرورة أي إلى التاريخ، وبعبارة أخرى، أطردهم من الحاضر الأبديّ، من ثمّ لا يهمّ إن كان بريئًا أو مذنبًا، فقد استحقّ عِقابه.

كان أوّل المتعصّبين «*للعلم*»، كان حديثًا بأسوأ ما للكلمة من معنى، وكان تبجُّحُه وهذيانُه مقدّمات لتبجّح وهذيان منظّري المذاهب في القرن الماضي. وحدَهُ ما تعرّض إليه من عذاب يهوّن علينا إفراطاته. العُقاب[1]، هو ذا أحدُ الذين *فهموا* وحدسوا بمستقبلنا فحاولوا تجنيبنا أهوالَه. إلاّ أنّ إشارة الانطلاق كانت قد أُعطيت والبشر كانوا قد استطابوا ألاعيب الفاتن الذي صاغهم على منواله، وعلّمهم أن ينقّبوا مثله عن *بواطن* الحياة، على الرغم من المنع الذي سنّتهُ الآلهة. هو الذي حرّضَ على الفضول والتجاوزات التي تسبّبت فيها المعرفة، هذا الفضول القاتل الذي يمنعنا من أن نتلاءمَ مع العالَم. حين رفع المعرفة والفعل إلى مرتبة المثل الأعلى، أَلَمْ يدمّر الكائن، ومع الكائن أَلَمْ يدمّر إمكانية العصر الذهبيّ؟ كان يضعنا على طريق بلايا قد لا توازي بلاياه، لكنّها منذورة إلى أن تستمرّ لمدّةٍ أطول. لم يقلّ «برنامجُه» عن الحتميّة تماسكًا، وقد أنجزهُ بامتياز... لكن في الاتّجاه المعاكس: كلّ ما حثّنا عليه وأَلْزَمَنا بِهِ انقلب نقطةً نقطةً، عليه أولاً، ثمّ علينا في النهاية. لا يُرَجُّ اللاوعيُ البدئيُّ دون عواقب، وكلّ من يقتدون به في ذلك يعرفون حتْمًا مصيرَه:

---

(١) العُقاب: بعد أن أوثق بروميثيوس إلى صخرة، سلّطت عليه الآلهة عُقابًا أو رُخًّا يأكلُ كبدهُ نهارًا فيجدّدها زيوس ليلاً.

يُفتَرَسُونَ ولديهم هم أيضًا صخرتُهُم وعُقابُهم. ولا يحتدُّ حقدهُم عليه إلاّ لأنّهم يحقدون على أنفسهم فيه.

٣

إنّ المرور إلى العصر الفضّي ثم إلى العصر البرونزيّ فالعصر الحديديّ، يؤرّخ لمسيرة سقوطنا وابتعادنا عن ذلك الحاضر الأبديّ، الذي لم نعد نملك عنه إلاّ تصوّرا مزيّفًا ولم تعد لدينا معه حدود مشتركة. إنّه منتمٍ إلى كونٍ آخر، يُفلتُ منّا، ونختلف عنه إلى حدّ أنّنا بتنا عاجزين عن تخمين طبيعته. لم تعد لدينا وسيلة لامتلاكه، ولكن هل امتلكناه حقًّا في زمنٍ غابر؟ وكيف نعود إليه إذا كنّا لا نرى شيئًا يمكّننا من استرجاع صورته؟ لقد حُرِمنا منه إلى الأبد، وإذا أمكَنَ أن نقترب منه أحيانًا، فالفضل راجعٌ إلى تلك الدرجات القُصوَى من الشبَع والاسترخاء، حيث لا يبقى من العصر الذهبيّ إلاّ صورته الكاريكاتوريّة، فإذا هو باروديا الثابت، صيرورةٌ خائرةُ القوى تجمّدت في بُخْلٍ لازَمَنِيّ، متقوقعة على لحظة عاقر وعلى كنزٍ يزيدها فقرًا، صيرورةٌ شبَحِيّةٌ مُعْدمةٌ وعلى الرغم من ذلك فهي راضية، لأنّها شبعانةٌ بالخواء. إنّ الكائنات الممنوعة من النشوة لا تجد منفذًا إلى أُصولها إلاّ عن طريق إطفاء حيويّتها، عن طريق غياب كلّ صفاتها المميّزة، عن طريق ذلك الإحساس بلانهائيّةٍ جوفاء، بهاويةٍ حُطّ من شأنها، بفضاءٍ في ذروة التضخّم وديمومةٍ مُتضرّعةٍ لاغية.

ثمّةَ أبديّةٌ حقيقيّةٌ إيجابيّةٌ تمتدّ إلى ما وراء الزمن. وثمّةَ أُخرى سلبيّةٌ مُزيّفة توجدُ في هذه الجهة من الزمن. تلك هي

تحديدًا الأبديّةُ التي نقبع فيها بعيدًا عن الخلاص، خارجَ مجال اختصاص أيّ فادٍ، والتي تُحرِّرُنا من كلّ شيء عن طريق حرماننا من كلّ شيء.

نخلع الكون ثمّ ننهكُ أنفُسنا في التملّي من مشهد مظاهِرنا. هل ضَمُرَ ذلك العُضو الذي كان يسمح لنا برؤية قاعِ كياننا؟ هل تحتّم علينا أن نُختَزَلَ إلى الأبد في ظاهِرنا؟ لو أحصيت أمراض الجسد والروح كُلَّها، لما كانت شيئًا بالقياس إلى عجزنا عن التلاؤم مع الحاضر الأبديّ، أو عجزنا عن اختلاس أصغر قطعة منه للتمتّع بها.

لقد سقطنا بلا رجعة في الأبديّة السلبيّة، هذا الزمن المُبَعْثَر الذي لا يؤكّد نفسه إلاّ حين يلغيها، هذه الماهيّة المُخْتَزَلة في سلسلة من الدمارات وحصيلةٍ من الالتباسات، هذا التَمام الذي لا مبدأ له إلاّ في العدم، ونحن نعيش ونموت في كلّ لحظة من لحظاته دون أن نعلم متى يكون، لأنّه في الحقيقة ليس كائنًا البتّة. وعلى الرغم من عَرَضِيَّتِهِ فإنّنا متعلّقون به إلى حدّ أنّنا، للانشغال عنه، نحتاج إلى أكثر من زعزعة لعاداتنا: نحتاج إلى ورمٍ في الذهن، إلى شرخ في الذات يُتيح لنا أن نلمح ما هو غير قابلٍ للتدمير وأن نصل إليه، وهي مِنّةٌ موقوفةٌ على قلّة فحسب من المغضوب عليهم، جزاءَ موافقتِهم على خرابهم. أمّا البقيّة أي الغلبة الغالبة من الفانين وعلى الرغم من اعترافهم بالعجز عن مثل هذه التضحية، فإنّهم لا يتخلّون عن البحث عن زمن *آخر*، بل على العكس من ذلك لا يدّخرون جهدًا في نُشدانه بضراوة، ولكن بهَدَفِ تنزيله في عالمنا الأرضيّ، عملاً بتعاليم اليوتوبيا

التي تسعى إلى المصالحة بين الحاضر الأبديّ والتاريخ، وبين مُتَع العصر الذهبيّ والطموحات البروميثيوسيّة، أو إذا شئنا اللجوء إلى القاموس التوراتيّ، عملاً بتعاليم اليوتوبيا في محاولتها إعادة إنشاء جنّة عدْن بوسائل السُقوط، كي يُتاح هكذا لآدم الجديد أن يتمتّع بميزات آدم القديم. ألسنا هنا أمام محاولةٍ لمراجعة الخلق؟

٤

فكّر فيكُو[1] في إنشاء «تاريخ مثاليّ» وفي رسم «دائرته الأبديّة». وها هي فكرتُهُ تظهرُ من جديد مُطبَّقةً على المجتمع في الأنظمة الطوباويّة التي لا غرض لها إلاّ أن تحلّ نهائيًّا «المسألة الاجتماعيّة». من ثمّ هَوَسُها *بالنهائيّ* وتلهُّفُها على إقامة الفردوس في أسرع وقت، في المُستقبل العاجل، في ما يُشبه ديمومةً متوقّفة أو ممكنًا موقوفًا، أي في نسخة مزيّفة عن الحاضر الأبديّ. قال فورييه: «إذا أمكن لي بكلّ هذا اليقين أن أعلن عن أنّ الوئام الكونيّ أصبح وشيكًا، فلأنّ تنظيم الدولةِ التعاونيّة لا يتطلّب أكثر من سنتين...» كلام يُضرب به المَثَلُ في السذاجة لكنّه يُترجم عن واقع أعمق. هل كنّا لنشرع في أيّ عمل لولا اقتناعنا الخفيّ بأنّ المُطلَق متوقّفٌ علينا، على أفكارنا وأفعالنا، وأنّنا قادرون على تأمين انتصاره في أقرب الآجال؟ حين يتماهى أحدُنا بشكل كامل مع شيء معيّن، فهو يتصرّف وكأنّه واثق من

---

(١) فيكو (Giovanni Battista Vico): فيلسوف إيطالي(١٦٦٨-١٧٤٤) أحد روّاد فلسفة التاريخ.

حلول الوئام الكونيّ أو واثقٌ من أنّهُ أكبرُ دُعاتِه. أن نفْعَلَ يعني أن نترسّخ في مستقبل قريب، هو من القرب بحيث يكاد يتحوّل إلى شيء ملموس، وأن نشعر بأنّنا من نفس الجوهر. إلاّ أنّ الأمر مختلفٌ بالنسبة إلى أولئك الذين يُطاردهم شيطان النزوع إلى الإرجاء. «إنّ الأمر الذي يكون من النافع إرجاؤُهُ قد يكون من الأنفع التخلّي عنه»، هكذا يكرّرون لأنفسهم مع أبكتاتوس[1]، على الرغم من أن ولعهم بالتأجيل لا ينبع من اعتبارات أخلاقيّة كما هو الشأن لدى الرواقيّين، بقدر ما ينبع من رعبٍ يكاد يرقى إلى المنهج، ومن تقزّزٍ أشدَّ تأصُّلاً من أن لا يتّخذ هيئة النظام أو الرذيلة. إذا كان هؤلاء قد استبعدوا الماقبل والمابعد، وإذا كانوا قد هجروا اليوم والغد باعتبارهما غير صالحين للسكنى، فلأنّ العيش عن طريق الخيال بعد عشرة آلاف عام أسهل عليهم من الاسترخاء في الراهن والعاجل. ولعلّهم على امتداد السنوات يكونون قد فكّروا في الزمن كمفهوم أكثر ممّا فكّروا في الزمن الموضوعيّ، في اللامحدود أكثر من الفعّال، في نهاية العالم أكثر من نهاية النهار. ودون أن يعثروا في الديمومة ولا في المسافة على لحظات أو أماكن مميّزة، يمضون من وهَنٍ إلى وهَن، وحين يُمنعون حتّى من تقدُّمهم ذاك، فإنّهم يتوقّفون ويتلفّتون باحثين عن الأفق، ولكن ليس من أُفق. . .عندئذ يشعرون لا بالدُوار بل بالرعب، رعب هو من الشدّة بحيث يشلّهم ويمنعهم من الهرب. إنّهم مطرودون

(١) أبكتاتوس (É?pictète): فيلسوف رواقيّ روماني (٥٠- ١٢٥ أو ١٣٠)

مُبْعَدُون خارجون على الزمن، منفصلون عن الإيقاع الذي يحمّسُ الخثّ، ضحايا إرادةٍ واعية ومصابة بفقر الدم، تتصارع مع نفسها وتنصتُ إلى نفسها دون انقطاع. أن نريد، في المعنى الحقيقيّ للكلمة، هو أن نجهلَ أنّنا نريد، أن نرفض الانكباب على ظاهرة الإرادة. رجلُ الفعل لا يزن اندفاعاته ولا دوافعه، ولا يفحص ردود أفعاله بل يستجيب إليها دون تفكير ودون أن يعوقها. ليس الفعل هو ما يهمّه بل الهدف والقصد من الفعل. لذلك هو يهتمّ بموضوع الإرادة وليس بآليّتها. إنّه يصارع الزمن ليجد ما هو نهائيّ أو ليتمنّى إدراجه فيه فورًا أو بعد عامين... أن يَتحرّكَ يعني أن يَرضَى بأن يُعمِيَهُ شكلٌ من أشكال الكَمال: لا شيء حتى الحركةُ إلاّ وفيه مُقوّمٌ من مقوّمات اليوتوبيا. حتى التنفُّسُ ما كان ليختلفَ عن العذاب لولا ذكرى الفردوس أو توقّع الفردوس، الغرض الأقصى لرغباتنا على الرغم من أنّه غيرُ مُدْرَك، وجوهرُ ذاكرتنا وتطلّعاتنا غيرُ المُعَبَّرِ عنه. إن البشر الحديثين عاجزون عن تبيُّن الفردوس في قرارة طبيعتهم، وهم على عجلةٍ من أمرهم أكثر ممّا يسمح لهم باستخلاصه من أعماقهم، لذلك تحتّمَ عليهم إسقاطُهُ على المستقبل، وليس من موجزٍ لاوهامهم أفضل من التصدير الخاصّ بالجريدة السان سايمونيّة[1]، *المنتج*: «إنّ العصر الذهبيّ الذي يضعهُ التقليدُ

(١) السان سايمونية: نسبة إلى سان سايمون (Comte de Saint-Simon): رجل اقتصاد وفيلسوف فرنسي (١٧٦٠-١٨٢٥) كان له تأثر كبير على مفكّري القرن التاسع عشر.

الأعمى وراءنا، هو في الحقيقة أمامنا». ومن ثمّ ضرورةُ التعجيل بحلوله وإقامته إلى الأبد، وفق أُخْرَوِيّةٍ منبثقة لا من الحيرة، بل من النشوة والحماسة والتلهّف المشبوه وربّما المَرَضِيّ على السعادة. إنّ الثوريّ يعتقد أنّ الانقلاب الذي يعدُّ لهُ سيكون الأخير، ولدينا جميعًا الاعتقادُ نفسُه في حقول نشاطنا المختلفة، إذ ليس للحيّ من فكرة قهريّة سوى *النهائيّ*. نحن نتحرّك لأنّ من حقّنا كما نظنّ أن نُكمل التاريخ وأن نُغلقه فهو في نظرنا حقُلُنا، شأنُهُ في ذلك شأن «الحقيقة» التي تخلّت أخيرًا عن تحفُّظها لتكشف لنا عن نفسها. سيكون الخطأ من نصيب الآخرين، وسنكون نحن الوحيدين الذين فهموا كلّ شيء. إنّ كلّ من لا يُحاول الانتصار على الآخرين ثمّ على الله، وكلّ من لا يرغب في تعديل عمل الخالق وإصلاح عيوبه، بل إنّ كلّ من لا يرى أنّ من واجبه مُحاولة ذلك، يتخلّى عن مصيره إمّا عن حكمة وإمّا عن قِلّة حزم. أراد بروميثيوس أن يعمل أفضل من زيوس: أمّا وقد ارتجلنا دور خالق الكون فنحن نريد أن نعمل أفضل من الله، أن نعرّضه إلى مشهد فردوس متفوّق على فردوسه، أن نلغي ما لا علاج له، وإذا أردنا استعمال رطانة برودون[١]، أن «ننزع عن العالم قدَرِيّته». إنّ اليوتوبيا في مشروعها العامّ حلمٌ كوسموغونيّ في مستوى *التاريخ*.

---

(١) برودون (Pierre-Joseph Proudhon): رجل اقتصاد وعالم اجتماع فرنسي (١٨٠٩–١٨٦٥) وأول منظر للفوضويّة.

٥

لن نفلح في إقامة الفردوس على الأرض مادام البشر موسومين بالخطيئة. لابدّ إذنْ من إبعادهم عنها وتحريرهم منها. والأنظمة المكرّسة لذلك تشترك كُلّها في بِيلاجيّةٍ[(١)] مُقَنّعةٍ بدرجة أو بأخرى. نعلم أنّ بيلاج (السلتيّ، الساذج) بإنكاره نتائج السقوط، قد نزع عن خيانة آدم للأمانة كلّ قدرة على التأثير في الأجيال القادمة. إنّه يزعم أنّ سلَفَنا الأوّل عاش مأساةً شخصيّةً صِرْفًا، وتعرّض إلى نكبةٍ كان معنيًّا بها وحدَه، ولم يطِبْ لهُ بأيّ شكل أن يورثنا أوزاره ورزاياه. لقد وُلدنا أخيارًا وأحرارًا وليس فينا أيّ أثرٍ لفسادٍ أصليّ.

من الصعب أن نتخيّل مذهبًا أكثر سخاءً وزيْفًا من هذا. إنّه هرطقة من النوع الطوباويّ، خصبةٌ بفضل مُغالاتها تحديدًا، بفضل لامَعْقُوليّتها الغنيّة بالمُستقبل. ليس لأنّ مؤلّفي الطوباويّات استلهموها بشكل مباشر، بل لأنّه لا مناص من الاعتراف بوجود تيّار بيلاجيّ كامل في الفكر الحديث، مناهض للأوغسطينيّة[(٢)]

---

(١) بيلاجيّة: نسبة إلى بيلاج (Pélage ou Pelagius): راهب ناسك من بروتانيا (٣٥٠-٤٢٠). كان يقول إن كلّ مسيحي قادر على بلوغ القداسة عن طريق وعيه وملكاتِه الخاصّة. واعتبرت الكنيسة الرومانية هذه الفكرة هرطوقيّة لانها تلغي البركة والخطيئة الأصليّة.

(٢) الأوغسطينيّة: نسبة إلى القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠) أصيل قرطاج الذي انتقل إلى روما وأثر في المسيحية تأثيرًا كبيرًا. والأوغسطينيّة منظومة متكاملة من بين ملامحها: ضرورة البركة للخلاص، ومحاولة التوفيق بين العقل والإيمان، وسلبية الشرّ.

والجانسينيّة[1]، تتجسّدُ نتيجته في عبادة التقدّم وفي الإيديولوجيّات الثوريّة، وتتمثّل أطروحتُهُ في أنّنا نُكوّنُ كتلةً من المُختارين الافتراضيّين، المُحرَّرين من كلّ خطيئة أصليّة، القابلين للتشكُّل إلى ما لا نهاية، المنذورين إلى الخير، والمستعدّين لكلّ محاولات بلوغ الكمال. أمّا روبير أوين[2] في بَيَانِه فهو يعِدُنا بنظام «قادرٍ على زرع عقل جديد وإرادة جديدة في النوع البشريّ كلّه، مؤهَّلٍ من ثمّ لقيادة الجميع حتمًا إلى أن يصبحوا منطقيّين عقلانيّين أسوياء التفكير والسلوك».

انطلق بيلاج وتلاميذُه البعيدون من تفاؤل شديد في النظر إلى طبيعتنا. إلاّ أنّه لا برهان على أنّ الإرادة خيّرة. بل لعلّ الأرجح أنّها ليست خيّرة البتّة لا في هيئتها القديمة ولا في هيئتها الجديدة. وحدهم فاقدو الإرادة أخيار بشكل تلقائيّ، أمّا الآخرون فإنّهم يحتاجون إلى الاجتهاد في سبيل أن يكونوا أخيارًا، وهم لا ينجحون في ذلك إلاّ بعد جهود من شأنها أن تُثير سُخطهم. ولمّا كان الشرّ غير منفصل عن الفعل، فإنّ كلّ ما نقوم به سيكون مُوَجَّهًا بالضرورة ضدَّ أحدٍ مَا أو شيءٍ مَا، أو على الأقلّ ضدَّنا. إلاّ أنّنا في العادة، ونحن مصرّون على ذلك،

---

(١) الجانسينيّة: نسبة إلى الأسقف جانسين (Cornelius Jansen) هولندي الأصل (١٥٨٥-١٦٣٨) وقد اختلف هذا المذهب في حلّ مسألة الفضل الإلهي. وقلّل من شأن حرية الإنسان، وأنكر دعوى أن المسيح مات من أجل البشرية جمعاء إلخ...

(٢) روبير أوين (Robert Owen): مصلح واشتراكي من بلاد الغال (١٧٧١-١٨٥٨) يُعتبر أبا النظام التعاضُديّ.

لا نُريد إلاّ على حساب الغير. نحنُ لسنا مختارين بدرجة أو أخرى بقدر ما نحنُ منبوذون بدرجة أو أخرى. هل تريدون بناء مجتمع لا يسيء فيه البشر بعضٌ إلى بعض؟ إذنْ فعليكم أن لا تُدخلوا إليه إلاّ فاقدي الإرادة.

ليس لنا في المحصّلة إلاّ الخيار بين إرادة مريضة وإرادة شرّيرة. إحداهما طيّبة لأنّها مضروبة مشلولة غير ناجعة، والأخرى سيّئة أي متململة مسكونة بعنصرٍ ديناميكيّ: تلك هي التي تحافظ على حُمّى الصيرورة وتُثيرُ الأحداث. جَرِّدُوا منها البشر إذا كنتم تراهنون على العصر الذهبيّ. وهو ما يعادل تجريده من كيانه الذي يكمنُ سرّه في هذا النزوع إلى الإساءة التي لا يمكن تصوّرهُ بمعزل عنها. إنّه صعب الانقياد في ما يتعلّق بسعادته وسعادة غيره، لكنّه يتحرّك كمن يتمنّى إقامة مجتمع مثاليّ. ولو قُدِّر لهذا المجتمع أن يتحقّق لاختنق فيه، بما أنّ مساوئ الشِبع أكبر من مساوئ الفاقة. إنّه يحبّ الضغط والسيرورة الدائمة فإلى أين يمكنُهُ أن يمضي داخل الكمال؟ وهو قاصرٌ عن الحاضر الأبديّ، لذلك هو يخشى أكثر فأكثر رتابَتَهُ، مَهْلَكَة الفردوس في شكليْه الدينيّ والطوباويّ. ألا يكون التاريخ في المحصّلة نتيجة خوفنا من الضجر، ذلك الخوف الذي سيدفعنا دائمًا إلى التعلّق بالطريف وبالجديد في الكارثة، مفضّلين أيّ مصيبة على الركود؟ ليس من عنصرٍ مُدمّرٍ لخلاصنا أكثر من الهوسِ بما هو غير مسبوق. إنّنا نتقدّمُ من الجحيم بقدْرِ ما نبتعد عن الحياة النباتيّة، تلك التي يُفترض أنّ تُمثّل استكانتُها أساسَ كلّ شيء والإجابة الحاسمة على كلّ أسئلتنا. إنّ رعبنا منها هو

الذي يصنع منّا هذه العصابة من المتمدّنين، هذه الوحوش العالمة بكلّ شيء إلاّ بما هو جوهريّ. لقد بلغْنا من الفساد والإجهاد ما لم يعد في وسعنا معهُ أن نتململَ في البُطء، أن نكتفيَ بالتنفُّس، أن نتحمّل بإباءٍ مَظْلَمةَ الكينونة، أن ننأى بأنفُسنا عن الانتظار وعن طُغيان الأمل، أن نبحث عن حدٍّ أوسَط بين الجيفةِ والنَفَس. حقًّا لن يصالحنا شيء مع الضجر بعد الآن. إلاّ إذا أُتيحَ لنا، ببعض العون من فوق، أن نعيش وفرةً بلا أحداث، أن نتمتّع باللحظة الثابتة وأن نتلذّذ بالهويّة. لكنّ نعمة كهذه تتناقضُ مع طبيعتنا إلى حدٍّ أنّنا نسعد بحرماننا منها. نحن مقيّدون إلى التنوّع، ومنه نستمدّ هذه الحصيلة الثابتة من الخيبات والصراعات التي لا غنًى عنها لغرائزنا. لو كنّا في حِلٍّ من الهموم والكوابح لأُسْلِمْنا إلى أنفُسنا، ولكان الدُوار الناشئ عن ذلك قد جَعَلنا أسوأَ ألفَ مرّةٍ ممّا تفعلُ عبوديّتُنا. هذا المظهرُ من انحطاطنا غابَ عن الفوضويّين، آخر البيلاجيّين حتى الآن، وإن كانوا، لولعهم بالحريّة، قد تفوّقوا على أسلافهم برفض كلّ المدن بدءًا من تلك «الفاضلة»، وتعويضها بنوعيّة جديدة من الأوهام أكثر تألُّقًا وأبعد احتمالاً من سابقتها. وإذا كانوا قد ثاروا على الدولة ونادوا بإلغائها فلأنّهم رأوا فيها عقبةً في طريق إرادة طيّبةٍ أصلاً. بيد أنّ الدولة لم تولد إلاّ لأنّ تلك الإرادة سيّئة، تحديدًا. ولو غابت الدولة لاستطابت الإرادةُ الشرَّ بلا قيدٍ من أيّ نوع. هذا لا يمنع أنّ فكرتهم المتعلّقة بمحقِ كلّ سُلطة تبقى واحدة من أجمل الأفكار التي تمّ تصوُّرها يومًا. ولمّا كانوا هم الذين حاولوا تحقيقها فإنّنا لن نأسف بما يكفي على كونِ جنسهم قد انقرض.

لكن ربّما كان عليهم أن ينسحبوا وأن يغيبوا عن قرننا، لفرطِ تلهُّفه على تكذيب نظريّاتهم ونبوءاتهم. لقد بشّروا بعصر الفرد وها هو الفرد يقترب من نهايته. وبأفول الدولة وها هي أقوى وأكثر حضورًا من أيّ وقت مضى. وبعصر المساواة وها هو عصر الرعب يجيء. كلّ شيء إلى انحدار. حتّى اغتيالاتُنَا أصبحت أقلّ جودةً بالمقارنة مع اغتيالاتهم. والقليل منها الذي نتفضّلُ بتنفيذه بين الحين والآخر مفتقرٌ إلى تلك الخلفيّة من المُطلَق، التي كانت تغفر لاغتيالاتهم، المُنفَّذة دائمًا بالكثير من العناية والبراعة. لا أحد في وسعه اليوم أن يعمَلَ بواسطة القنابل على تحقيق «الوئام الكوني»، ذلك الوهم الذي لم نعد ننتظر منه شيئًا. . .وما الذي في وسعنا أن نرجو منه ونحن في أواخر العصر الحديديّ الذي وصلنا إليه؟ إنّ الإحساس السائد هنا هو التجرّد من كلّ وهم، تلك حصيلة أحلامنا التالفة. وإذا لم يعد في طاقتنا حتى الإيمان بمزايا الدمار، فلأنّنا كفوضويّين أُبعِدُوا عن مهمّتهم الأولى، قد فهمنا ضرورته العاجلة ولا جدواه.

٦

كان العذاب في بداياته يُراهنُ على العصر الذهبيّ هنا على الأرض، كي يبحث فيه عن سنَد، كي يستقرّ فيه بشكلٍ مَا. إلاّ أنّهُ كلّما استفحل، ازداد ابتعادًا عنه، كي لا يتعلّق أخيرًا إلاّ بنفسه. كان العذاب شريكًا للأنظمة الطوباويّة وها هو يقف الآن في وجهها، يتبيّنُ فيها خطرًا قاتلاً يهدّد ويلاته التي اكتشف للتوّ سحرها. بفضل شخصيّة *القبو* سيُتاح للعذاب أن يدافع عن

الشواش، أن يتمرّد على العقل، فإذا «الأربعة ضعفُ الإثنين» في مواجهة «قصر الكريستال»، كنسخةٍ عن الفالانستير.

في وسع كلّ من جرّب الجحيم أو التعاسة المخطّطَ لها أن يعثر على وجهها التناظُريّ المرعب في المدينة الفاضلة، حيث السعادة المُشاعة التي يتقزّز منها كلّ من أمضّه الألم. لقد أظهر دوستويفسكي عداءهُ لها إلى حدّ اللاتسامح. ومع تقدّمه في السنّ أخذ يحدّد مواقفه أكثر فأكثر بالقياس على درجة تناقضه مع أفكار فورييه التي تأثّر بها في شبابه. لم يستطع أن يغفر لنفسه انخراطه في تلك الأفكار، فانتقم من أبطاله، الصيغ الكاريكاتوريّة، فوق البشريّة، لأوهامه الأولى. لقد كره فيهم ضلالاته القديمة، تنازلاتُه لليوتوبيا التي ظلّت تلاحقه بعددٍ من تيماتها: حين قام مع كبيرِ قضاةِ ديوان التفتيش بتقسيم البشريّة إلى قطيع سعيد وأقليّةٍ مهمومةٍ بعيدة النظر تتحمّل عنها مصائرها، وحين أراد مع بيير فيركوفينسكي[1]، أن يصنع من ستافروغين القائدِ الروحيِّ للمدينة المستقبليّة، حبْرًا أعظم ثوريًّا ومُلحدًا، ألم يكن يستلهم «الكهنوت» الذي اعتبره السان سايمونيّون أعلى درجةً من «المنتجين»؟ ألم يكن يستلهم مشروع الأب أنفانتان[2] الذي أراد

---

(١) إشارة إلى شخصيّات رواية الشياطين (أو الممسوسين): بيار فيركوفينسكي الثوريّ المتحمّس، يريد أن يجعل من ستافروغين الأرستقراطيّ، قائدَ المجموعة الثوريّة.

(٢) الأب أنفانتان (Barthélemy Prosper Enfantin): كاتب ومقاول فرنسي (١٧٩٦-١٨٦٤) كان وراء حفر قناة السويس وأحد أعلام التيّار السان سايمونيّ.

تنصيب سان سايمون نفسه بابا للديانة الجديدة؟ لقد اقترب بالكاثوليكيّة من الاشتراكيّة، بل إنّه طابقَ بينهما عن طريق نظرة تجمع بين المنهج والهذيان، ذلك الخليط السلافيّ بامتياز. بالمقارنة مع الغرب كلّ شيء في روسيا يرتفع بدرجة: تصبح الشكوكيّةُ عدميّةً والفرضيّةُ دوغما والفكرةُ أيقونة. لا يتفوّه شيغاليف[1] بحماقات أكثر ممّا يفعل كابيه إلاّ أنّه يضع فيها ضراوة لا نظير لها لدى نموذجه الفرنسيّ. «لم تعد لديكم وساوس قهريّة، وحدنا نحن مازلنا نحتفظ ببعض منها». هكذا في ما يبدو، يقول الروسُ للغربيّين من خلال دوستوييفسكي، المهووس بامتياز، المُتشيّع مثل كلّ شخصيّاته إلى حلم وحيد: حلم العصر الذهبيّ الذي بدونه على حدّ قولِه، «لا تريد الشعوب أن تعيش ولا تستطيع حتى أن تموت». لم يكن ينتظر أن يتحقّقَ هذا العصر في التاريخ بل كان يخشى حلوله، دون أن تعني تلك الخشية وقوعًا في «الرجعيّة»، فهو لم يهاجم «التقدّم» باسم النظام بل هاجمه باسم النزوة والحقّ في النزوة. هل رفَضَ الفردوسَ القادم ليُنقذ الفردوس الآخر، القديم، التليد؟ سيجعلُ من ذلك موضوع حلمٍ وينسبُه على التوالي إلى ستافروغين وفارسيلوف[2] و«الرجل المُضحك»[3].

«توجد في متحف دريسدن لوحة لكلود لوران أُدرجت في

(١) شيغاليف: إحدى شخصيّات رواية الشياطين، المدافع عن نظام المساواة المطلقة.
(٢) فارسيلوف: إحدى شخصيات رواية المراهق لدوستوييفسكي.
(٣) إحدى روايات دوستوييفسكي، وتترجم احيانًا باسم الرجل التافه.

الكاتالوغ تحت اسم أسيس وغالاطيه. . . تلك هي اللوحة التي شاهدتُها في الحلم، لا كلوحة بل كحقيقة. كنتُ في إحدى زوايا الأرخبيل اليونانيّ، تمامًا كما في اللوحة، وقد عدتُ في ما يبدو أكثر من ثلاثة آلاف سنة إلى الوراء. أمواج زرقاء ناعمة، جزر وصخور، شواطئ نضِرة، ومن بعيد مشهد أخّاذ، نداء الشمس الغاربة. . .إنّه مهد البشريّة. . .كان البشر ينامون ويستيقظون سعداء وأبرياء، بينما الغابات تردّد أصداء أغانيهم المرحة، وكان فائض طاقاتهم الوافرة يتدفّقُ في الحبّ، في الفرح الساذج. وكنتُ أحسّ بذلك وألمحُ في الوقت نفسه المستقبلَ الهائل الذي كان في انتظارهم والذي لم يكونوا منتبهين إليه أصلاً، وكان قلبي يهتزّ لتلك الخواطر». (الشياطين).

سيشاهد فارسيلوف بدوره نفس الحلم الذي شاهده ستافروغين، مع فارق أنّ تلك الشمس الغاربة لن تبدو له شمس البداية بل شمس نهاية «البشرية الأوروبيّة». في *المراهق*، كما نرى، لا يخلو هذا المشهد من بعض القتامة، إلاّ أنّه سيصبح حالكًا تمامًا في «حلم رجل مُضحك». يصوّر دوستويفسكي في هذه الرواية العصر الذهبيّ وكليشيهاته بأكثر دقّة وحماسة ممّا فعل في روايتيه الأخريين. وكأنّنا أمام رؤيا من رؤى كلود لوران[1] وقد علّق عليها هيزيودٌ سارماتيّ. نحن على الأرض «قبل أن يدنّسها الخطأ الأصليّ»، والبشر يعيشون في «نوع من الحماسة

---

(١) كلود لوران (Claude Gellée, dit le Lorrain): رسّام من لوران (١٦٠٠-١٦٨٢) أحد أبرز رسّامي المشاهد الطبيعيّة الكلاسيكيّين.

العاشقة، الشاملة، المُتبادلة»، ولديهم أطفال دون أن يتعرّضوا إلى بشاعات الجنس والإنجاب، ويتجوّلون في الغابات مردّدين الترانيم، مستغرقين في نشوة دائمة، وقد خلصوا من الغيرة والغضب والأمراض إلخ. . . لا جديد في كلّ هذا. إلاّ أنّ سعادتهم التي كانت تبدو دائمة، هي في الحقيقة زائلة: لقد حلّ بينهم الرجل المضحك وأفسدهم جميعًا. مع ظهور الشرّ تلاشت الكليشيهات ونُفِخت الروحُ في اللوحة. «مثل المرض المُعدي، مثل ذرّةِ الطاعون القادرة على تلويث إمبراطوريّة كاملة، هكذا أمكن لي أن ألوّث بحضوري أرضًا من النعيم ظلّت بريئة حتى قدومي. تعلّموا أن يكذبوا واستطابوا الكذب وتعلّموا جمالَ الكذب. ربّما بدأ كلّ ذلك ببراءة، بقصد المزاح البسيط، بقصد التغنّج، كنوع من اللعب الممتع، وربّما حدث ذلك حقًّا بواسطة بعض الذرّات، إلاّ أنّ ذرّة الكذب تلك تغلغلت في قلوبهم وبدت لهم مُستحبّة. بعد ذلك وُلدت المُتعة، والمُتعة أنجبت الغيرة، والغيرة أنجبت الوحشيّة. . .آه! لا أدري، لم أعد أذكر، ولكن سريعًا ما انبجس الدمُ في دفْقَةٍ أولى: اندهشوا لذلك وفزعوا وأخذوا يبتعدون بعضهم عن بعض ويتفرّقون. ثمّ تكوّنت تحالفات، بعضٌ ضدّ بعضٍ هذه المرّة. تردّدت أصداء اللوم والتوبيخ. عرفوا معنى الخزي ومن الخزي صنعوا فضيلة. نشأ لديهم الإحساس بالشرف فإذا هو يرفع رايته فوق كلّ حلف. شرعوا في الإساءة إلى البهائم فابتعدت البهائم عنهم داخل الأدغال وعادَتْهُم. حلّت حقبة من الصراعات لصالح الذاتيّة والفرْديّة والشخصانيّة والتمييز بين ما هو لي وما هو لك. تنوّعت

اللغات. تعلّموا الحزن وأحبّوا الحزن. تاقوا إلى الألم وقالوا إنّ اكتساب الحقيقة لا يكون إلاّ بالألم. ثمّ ظهر فيهم العلم. أصبحوا أشرارًا وعندئذ شرعوا في الكلام على الأُخُوّة والإنسانيّة وفهموا هذين الفكرتين. أصبحوا مجرمين وعندئذ اخترعوا العدالة وأَمْلوا على أنفسهم مدوّنات قانونيّة كاملة للمحافظة عليها. بعد ذلك وحرصًا على احترام تلك المُدوّنات نصبوا المقصلة. لم تعد لديهم غير ذكرى باهتة عمّا فقدوه، حتى كفّوا عن الرغبة في الاعتقاد بأنّهم كانوا في قديم الزمان أبرياء وسعداء. صاروا لا يتوانون عن الاستهزاء بإمكانيّة سعادتهم القديمة التي سمّوها حلمًا.» (مذكّرات كاتب).

لكن ثمّةَ ما هو أسوأ: كانوا في طريقهم إلى أن يكتشفوا أنّ الوعي بالحياة أرقى من الحياة وأنّ معرفة «قوانين السعادة» أرقى من السعادة. ومن ثمّ كان هلاكهم. حين فرّق بينهم وبين أنفسهم عن طريق العمل الشيطانيّ للعلم، وحين أسقطهم من الحاضر الأبديّ إلى التاريخ، ألم يكن «الرجل المُضحك» يُكرّر حِيالَهُم أخطاء بروميثيوس وجنونه؟

ارتكب جريمته ثمّ ها هو يدعو، بإيعازٍ من الندم، إلى حملة صليبيّة لاسترجاع ذلك النعيم الذي قام بتخريبه للتوّ. إنّه يحملُ نفسه على ذلك لكن دون اقتناعٍ حقيقيّ. شأنه في ذلك شأن الكاتب، على الأقلّ حسب انطباعنا. إنّه يدحرُ صِيَغَ المُستقبل، ولا يلتفت ناحية هوَسِهِ المُفضَّل، ناحية الغبطة الأزليّة، إلاّ ليُوضّح عدم تماسُكِها وطابعها الخداعيّ. ما أن يصْرَعهُ اكتشافهُ حتى يحاول التخفيف من نتائجه، وإحياء أوهامه، وإنقاذ حلمه

الأغلى ولو عن طريق فكرة. لكنّه عبثًا يفعل. وهو يعرف ذلك مثلنا تمامًا. أمّا فكرتُهُ فإنّنا نشوّهها بالكاد حين نؤكّد أنها تَخْلُصُ إلى *استحالة مضاعفة للفردوس*.

ثمّ أليس من الأمور الدالّة أنّه لم يجد لوصف المشهد الفردوسيّ الذي تخلّل حُلمَهُ في صِيَغِهِ الثلاث، غير اللجوء إلى كلود لوران، حبًّا في ألاعيبه السمجة، شأنه في ذلك شأن نيتشة؟ (أيّ هاويةٍ تفترض ميولاً بمثل هذا الإرباك!). لكن ما أن أصبح الأمر يتعلّق بوصف تفَتُّتِ السعادة الأصليّة وديكورِ السقوط ودوارِه، حتّى كفّ عن الاقتراض من أيٍّ كان وأخذَ يمتحُ من نفسه مستبعدًا كل اقتراح غريب عنه. بل إنّه كفّ حتى عن التخيُّل والحلم وأصبح يرى. هكذا وجد نفْسَهُ أخيرًا في بيئته، في قلب العصر الحديديّ، حبيبِهِ الذي من أجلِهِ حارب «قصرَ الكريستال» وضحّى بجنّة عدْن.

٧

بما أنّ صوتًا بمثل هذه الموثوقيّة قد أعْلَمَنا بهشاشة العصر الذهبيّ القديم وبطلان العصر الذهبيّ القادم، فإنّ من واجبنا استخلاص النتائج والكفّ عن الانخداع بهذيانات هيزيود وبروموثيوس، فضلاً عن التوليفات التي سعت إليها الطوباويّات. لم يُوجَد الوئام شاملاً كان أم غير شامل، ولن يُوجد أبدًا. أمّا العدالةُ فنحن لن نظنّها ممكنةً بل لن نتخيّلها مُجرّد التخيّل، إلاّ إذا كنّا متمتّعين بموهبة من العمى الخارق، بنبوغ غير مألوف، ببركة إلهيّة تدعمها بركة شيطانيّة. مع التعويل إضافةً إلى ذلك

على مزيدٍ من الجهد في السخاء من طرف السماء والجحيم، والحقّ أنّه جهد بعيد الاحتمال من الجهتين. وفقًا لشهادة كارل بارط[1] نحن «ما كنّا لنحافظ على رمقٍ من حياة، لو لم يوجد في قرارة نفوسنا ذلك اليقين بأنّ الله عادل». ثمّة على الرغم من ذلك كثيرون يواصلون العيش دون أن يعرفوا ذلك اليقين، بل دون أن يكونوا قد عرفوه يومًا. ما سرّهم، وبأيّ معجزةٍ يتنفّسون حتى الآن وهم يعلَمون ما يعلمون؟

مهما كان رفضُنا باتًّا فإنّنا لا نحطّم تمامًا مواضيع حنيننا. تبقى أحلامُنا على قيد الحياة بعد يقظتنا وتنجو على الرغم من تحاليلنا. أمّا الفردوس فقد نبذل الكثير للكفّ عن الإيمان بحقيقته الجغرافيّة وتشكُّلاته المختلفة، دون أن يمنعه ذلك من الرسوخ فينا مثل مُسَلّمةٍ عُليَا أو مثل بُعْدٍ من أبعاد ذاتنا الأصليّة، علينا الآن أن نكتشفه. ما أن ننجح في ذلك حتّى ندخُل في ذلك المجد الذي يسمّيه اللاهوتيّون *جوهريًا*. إلاّ أنّنا لا نقف عندئذ وجهًا لوجه مع الله، بل مع الحاضر الأبديّ، وقد استولينا عليه من الصيرورة بل من الأبديّة نفسها... ما أهميّةُ التاريخ بعد ذلك؟ إنّه ليس مقرَّ الكينونة بل هو غيابُها، نفْيُ كل شيء، قطيعةُ الحيّ مع نفسه. ولمّا كنّا غير مجبولين من نفس ماهيّة التاريخ فإنّنا ننفُرُ من مواصلة الإسهام في اضطراباته. لِيَسْحَقْنا إن شاء فهو لن ينال إلاّ من مظاهرنا ونجاساتنا وحدها، تلك *الفضلات الزمنيّة* التي

---

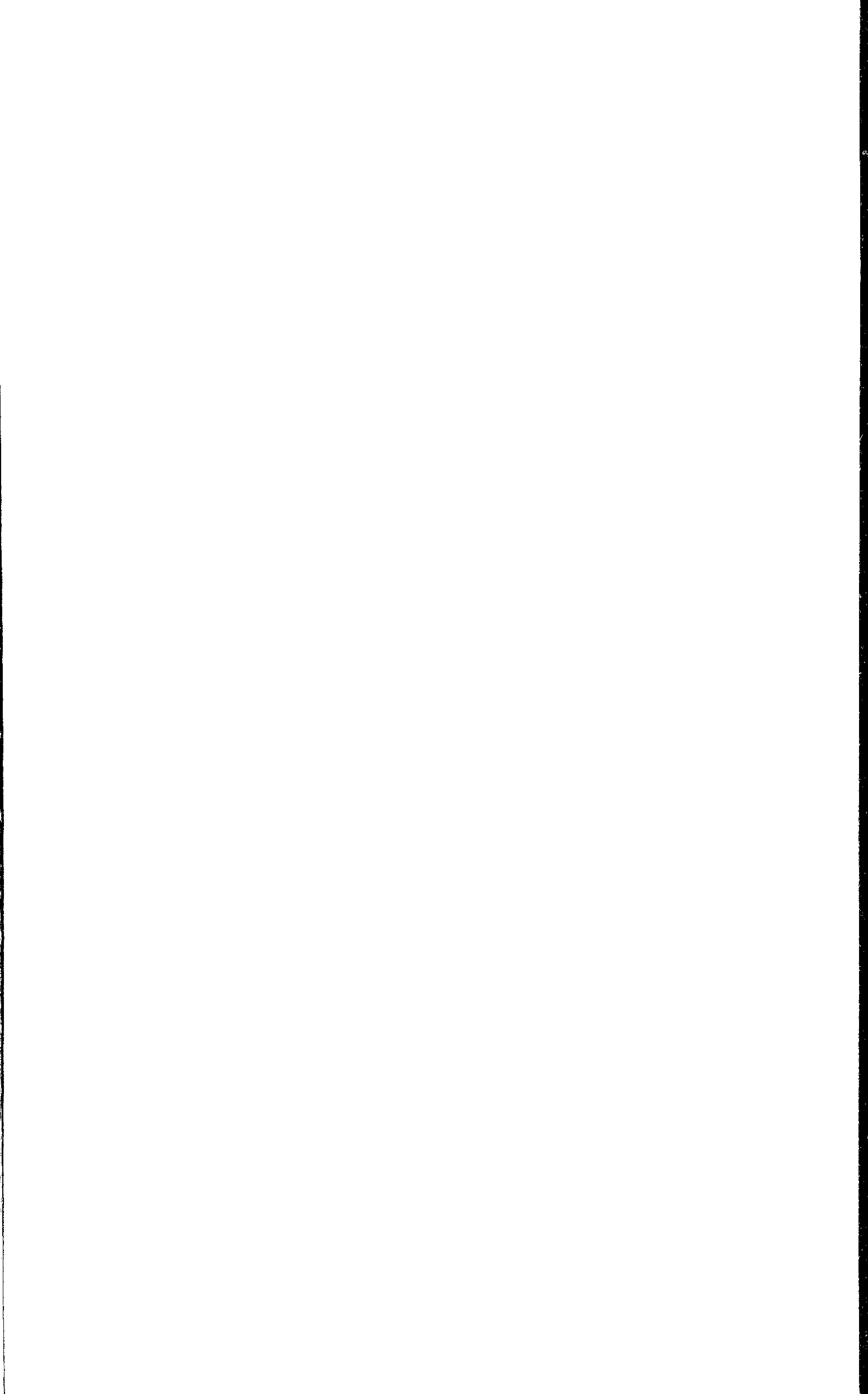
(١) كارل بارط (Karl Barth): لاهوتيّ بروتستانتي سويسريّ (١٨٨٦-١٩٦٨) يعتبر من وجوه الدراسات اللاهوتية في القرن العشرين.

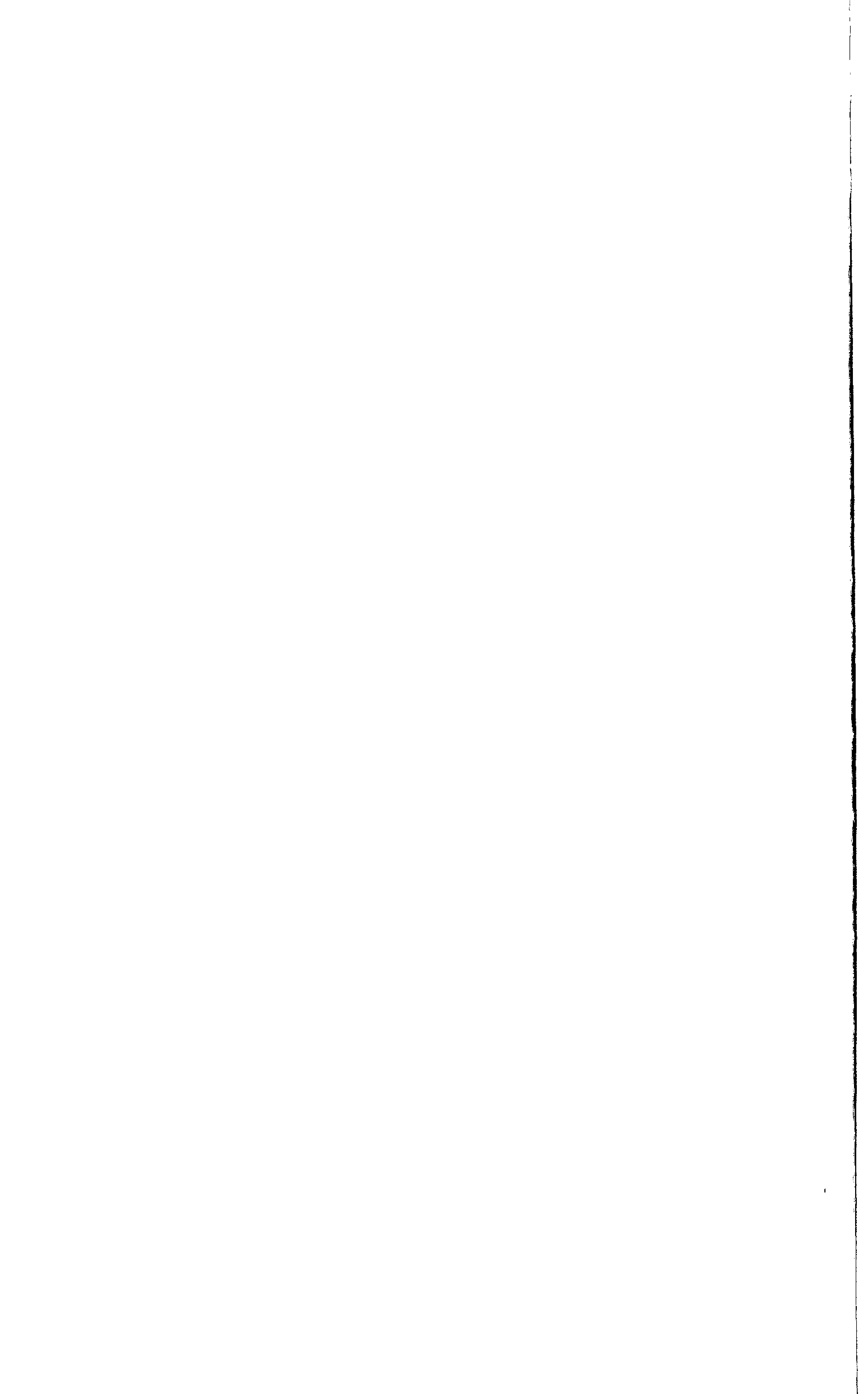
نجُرُّها دائمًا، رموزَ فشلٍ وعلامات على عدم الخلاص.

علينا أن نبحثَ عن دواء أمراضنا فينا، في المبدأ اللازمانيّ لطبيعتنا. لو تمّ إثباتُ وَهْمِيّةِ مثل هذا المبدأ ولو بُرهن عليها لضعنا نهائيًّا. لكن أيّ حجّة وأيّ برهان يمكنهما الوقوف ضدّ ذلك الاقتناع الحميم المتحمّس بأنّ جزءًا منّا منفلتٌ عن الزمن، ضدّ تدفُّق تلك اللحظات التي ينجز فيها الله عملاً مزدوجًا في وضوح يفاجئنا ظهوره على تخومنا، غبطةً تلقي بنا بعيدًا فينا، وصدمةً تأخذنا خارج الكون؟ يمّحي الماضي والمستقبل. تتلاشى القرون وتستسلم المادّة وتنفق الظلمات. يبدو الموت تافهًا وتبدو الحياةُ نفسُها تافهة. هذه الصدمة لو قُدّر لنا أن لا نشعر بها إلاّ مرّة واحدة، لكانت كافيةً كي نتصالح مع خزينا وبؤسنا اللذين لا شكّ أنّهما جائزتها. لكأنّ كلّ الزمن يجيء لزيارتنا لمرّةٍ أخيرة قبل أن يتلاشى... لا فائدة بعد ذلك من الصعود في اتّجاه الفردوس القديم أو الجري في اتّجاه الفردوس القادم. أحدهما مُستحيلُ المنال والآخر مُستحيلُ التحقّق. المهمّ في المقابل، أن نستبطن الحنين أو الانتظار، المحبطين بالضرورة في حال التفاتهما إلى الخارج، وأن نُكرههما على أن يتبيّنَا أو أن يخلُقا فينا السعادة التي نتحسّر عليها أو ننتظرها. ليس من فردوس إلاّ في أعمق أعماق كياننا، حتى لكأنّه في أنا الأنا. يبقى أنّ العثور عليه يتطلّب أن نكون قد استعرضنا الفراديس الأخرى كلّها الغابر منها والممكن، وأحببناها وكرهناها بكلّ ما في التعصّب من رُعونة، وسَبَرْناها ثمّ لفظناها بكلّ ما في الخيبة من كفاءة.

هل يُقال إنّنا نستبدل شبحًا بشبح، وإنّ أُمثولات العصر الذهبيّ لا تقلّ قيمة عن الحاضر الأبديّ الذي نحلم به، وإنّ الأنا الأصليّة التي نبني عليها كلّ آمالنا تُذكّرُ بالخواء وتتماهى به في المُحصّلة؟ لِيَكُنْ! لكن ألا يحتوي الخواء الذي يمنح الغبطة على حقيقة أكثر من تلك التي يمتلكها التاريخ في جملته؟

الفهرس





هذا الكتاب

من تلك البلاد التي كانت لنا ولم تعد لأحد، أنتَ تلحّ عليّ بعد كلّ هذه السنوات من الصمت، كي أمدّك ببعض التفاصيل عمّا يشغلني، وكذلك عن هذا العالم «الرائع» الذي تقول إنّي محظوظ بسكناه والتجوال فيه. في وسعي إجابتك بأنّني رجل عاطل وإن هذا العالم لا روعة فيه. لكنّ إجابةً بهذا الاقتضاب، على الرغم من دقّتها، لن تفلح في إشباع فضولك ولا في الردّ الشافي على العديد من أسئلتك.

